بسم الله الرحمن الرحيم

حول تطبيق الشريعة

تأليف الاستاذ
محمد قطب

{أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}
صدق الله العظيم



فهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

{الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله}.

منذ فترة وجيزة كنت أكتب مقدمة الطبعة الأولى من هذا الكتاب، وها أنذا اليوم أقدّم للطبعة الثانية، وهذا فضل من الله واسع، أحمد الله عليه، وأطلب منه المزيد من العون، والمزيد من التوفيق.

إن الإقبال على قراءة هذا الكتاب وأمثاله له دلالة واضحة عندي، هي أن موضوع تطبيق الشريعة أصبح محل اهتمام متزايد لدى عدد متزايد من الناس — ومن الشباب خاصة – وذلك دليل لا شك فيه.

ولا يغيب عن البال بطبيعة الحال أن التطبيق الفعلي للشريعة يستلزم تهيئة الأمة لهذا الأمر العظيم حتى تكون على مستواه، وتحمل تبعاته، وتؤدي دورها فيه، وأول خطوات هذه التهيئة هي بناء القاعدة الصلبة التي أشرت إليها في التعقيب الأخير في آخر الكتاب، وقلت أنها المهمة العاجلة للدعاة اليوم، وبينت في غير موضع من كتب سابقة أنها يجب أن تكون على مستوىً من القوة والصلابة والتجرد لله، والاستعداد للبذل في سبيل الله، ونفاذ البصيرة وسعة النظرة، بحيث تمثل الإسلام في نقائه، وتحمل التبعة الجسيمة وتتحرك بها بخطى ثابتة في خضم الأحداث...

ولكن مما لا شك فيه في ذات الوقت، أن تزايد الاهتمام بقضية الشريعة لدى العدد المتزايد من الناس – والشباب خاصة – هو علامة مضيئة على الطريق، توحي بأن الخير قادم، وأننا على الطريق...

والله المسئول أن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه...

محمد قطب

مقدمة

كلما ذكر تطبيق الشريعة تعالت من هنا ومن هناك صيحات منكرة، تستنكر الأمر وتستهوله، كأنما تطبيق الشريعة كارثة ستحل بديار المسلمين، أو كأنما التفكير في هذا الأمر خبل لا يصدر عن عاقل!

الآن؟ في القرن العشرين؟ بعد كل ما حدث في العالم من تطور؟ وبعد أن أصبح العالم بفعل وسائل الاتصال الحديثة كالقرية الصغيرة، لا مجال فيه لاتخاذ زي يخالف أزياء الآخرين؟!

تريدون أن نشذ وحدنا عن الناس؟! تريدون أن ترجعوا بنا إلى الوراء؟ أو توقفوا عجلة التطور؟!

أم تريدون أن نعتزل العالم كله ونتقوقع على أنفسنا؟ وفيم هذا العناء كله؟ وما الذي يلجئنا إلى هذا الطريق الوعر؟

ألكي نكون مسلمين؟ أولا يكفي نطق "لا إله إلا الله"، محمد رسول الله، ليجعلنا مسلمين؟!

إنكم تبتدعون في دين الله ما ليس فيه! فالإسلام يَثْبُتُ بنطق الشهادتين، أما قضية الشريعة فهي من الأمور المتغيرة التي يتصرف فيها ولي الأمر بحسب رؤيته لمقتضى الأحوال! والأحوال الآن لا تسمح كما هو واضح لكل ذي عينين!

وهل نسيتم الأقليات؟ كيف نطبق الشريعة وفي بلادنا أقليات لا تدين بالإسلام؟

وهل نسيتم الدول "العظمى!" وموقفها من الإسلام؟ وبالذات موقفها من تطبيق الشريعة؟ هل بنا طاقة – نحن المستضعفين في الأرض – نواجه بها الدول "العظمى"؟!

إن التفكير في تطبيق الشريعة في الوقت الحاضر تفكير "غير مسئول"! ينادي به قوم لا يعيشون بعقولهم في الواقع التاريخي المحيط بهم! أما "العقلاء" "المسئولون" فإنهم يستنكفون أن يفكروا على هذا النحو، ويجابهون الواقع بحكمة وروية، ونظرة "واقعية" إلى الأمور!

كذلك تتعالى الصيحات كلما ذكر تطبيق الشريعة!

وإنها لصيحات المنهزمين في دخيلة أنفسهم، الذين أكل الغزو الفكري عقولهم وأرواحهم، وجعلهم مسخا مشوها لا يصلح لشيء!

{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.

وقد شرحنا في غير هذا الكتاب[1] الأسباب التي أدت بالمسلمين إلى تقبل الغزو الفكري، وجعلت هذا الغزو ينتشر في أفكار "المثقفين" خاصة، الذين ربيت عقولهم ونفوسهم ليكونوا أتباعا للغرب، يرددون أفكاره، ويتحدثون بلسانه، ويرون الأمور بمنظاره، ويكونون هم خليفته في الأرض الإسلامية حين تضطره الظروف أن يسحب عساكره التي أخضع بها من قبل بلاد المسلمين، فتستمر التبعية دون أن يرى الناس العساكر الخفية التي تخضع بلادهم للنفوذ الغربي!

ولن نتعرض في هذه العجالة للأسباب التي أنتجت ذلك المسخ المشوه في الأرض الإسلامية، ومسئولية الأمة الإسلامية نفسها عما أصابها على يد أعدائها، حين نسيت رسالتها ونكلت عن أدائها، إنما نتناول هنا في إيجاز شديد – وموضوعية كذلك – أهم الأفكار التي يشوشون بها على الناس، ليوحوا إليهم أن تطبيق الشريعة أمر لا يمكن تحقيقه اليوم، بل لا يجوز تحقيقه حتى إن كان في حيز الإمكان! فضلا عن كونه أمرا لا ضرورة له ولا موجب، طالما أن إسلامنا متحقق بنطق "لا إله إلا الله"!

وقد ناقشت بادئ ذي بدء قضية العقيدة والشريعة، وهل هما منفصلتان في دين الله، بحيث نستطيع أن نكون مسلمين بمعزل عن تطبيق الشريعة؟ وقضية حرية ولي الأمر في تعطيل شريعة الله أو تعديلها أو إبدالها. ثم ناقشت شبهة تعارض تطبيق الشريعة مع مقتضى التطور، وتعارض أحكام الشريعة ذاتها مع مقتضيات الحضارة الحديثة، وشبهة عدم إمكان تطبيق الشريعة بسبب وجود الأقليات في العالم الإسلامي، وعدم إمكان تطبيقها بسبب موقف الدول "العظمى" من الإسلام.

وأرجو من الله أن يكون في هذه العجالة غناء، وأن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه.

{إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}.

محمَّد قطبْ

[1] انظر "واقعنا المعاصر"، فصل؛ "خط الانحراف"، وفصل؛ "آثار الانحراف".

المبحث الأول
هل تنفصل العقيدة عن الشريعة في دين الله

يحسب كثير من الناس – بتأثير الفكر الإرجائي من جهة، وتأثير الغزو الفكري من جهة أخرى – أن النطق بـ "لا إله إلا الله" محمد رسول الله، يعطي الإنسان صفة الإسلام مدى الحياة، ثم يدخله الجنة في الآخرة، مهما تكن أعماله وأفكاره ومشاعره! ومن ثم فلا علاقة لهذا الأمر بتحكيم شريعة الله!

ويرى فريق آخر من الناس – يعتبرون أنفسهم أكثر تفقها في دين الله – أن النطق بالشهادتين يعطي الإنسان صفة الإسلام في الحياة الدنيا، لاصقة به طول حياته، أيا تكن أعماله وأفكاره ومشاعره، وحسابه على الله في الآخرة، يدخله الجنة أو يدخله النار بحسب ما يعلم من سريرته سبحانه، أما نحن فلنا الظاهر، والظاهر هو قوله "لا إله إلا الله"... ولا علاقة لهذا الأمر بالتحاكم إلى شريعة الله!

ويكفي للرد على هذا الوهم وذاك أن أبا بكر رضي الله عنه قاتل قوما ينطقون بالشهادتين، ويؤدون الصلاة كذلك، ولكنهم يمتنعون فقط عن أداء الزكاة، ولو كانت صفة الإسلام تظل لاصقة بالإنسان بعد نطقه بالشهادتين مهما تكن أفعاله ما جاز لأبي بكر رضي الله عنه أن يقاتل أولئك القوم، ولا أجمع الصحابة رضوان الله عليهم على وجوب قتالهم، بعد أن استوثقوا أن هذا هو حكم الله في الأمر[٢].

إن "لا إله إلا الله"، محمد رسول الله، هي مدخل الناس إلى الإسلام، ولا مدخل لهم سواها، إليه وبمجرد نطقها يعتبرون مسلمين...

ولكن القضية التي يغفلها – أو يغفل عنها – هؤلاء القوم وأولئك، أن صفة الإسلام لا تلصق من ذات نفسها بالإنسان بعد نطقه بالشهادتين – مهما تكن أفعاله وأفكاره ومشاعره – إنما تحتاج إلى جهد دائب يقوم به الإنسان في كل لحظة من لحظات عمره لتثبيتها في مكانها، ومنعها من أن تسقط عنه، متمثلا هذا الجهد في القيام بأعمال معينة من أعمال القلب والجوارح لأنها من مقتضيات الإيمان، والامتناع عن أعمال معينة من أعمال القلب والجوارح، لأنها من نواقض "لا إله إلا الله"، التي تنقض أصل الإيمان.

[٢] كان عمر رضي الله عنه يعارض قتالهم في مبدأ الأمر على أساس أنهم يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويحتج بقوله عليه الصلاة والسلام: (فإن قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها) [متفق عليه]، فلما بين له أبو بكر رضي الله عنه أنهم نكلوا عن "حقها" قال قولته المعروفة: (والله ما إن رأيت أبا بكر شرح الله صدره للقتال حتى علمت أنه الحق).

وفي هذا الجهد الدائب كانت حياة الصحابة رضوان الله عليهم، حرصا منهم على بقاء صفة الإسلام لاصقة بهم، وخوفا منهم أن تسقط هذه الصفة عنهم، وقد وصلوا في ذلك إلى قمم رائعة استحقوا من أجلها أن يوصفوا بأنهم خير القرون قاطبة[٣]، ولكن العبرة هنا أنهم لم يعتقدوا قط أن مجرد النطق بالشهادتين يجعل صفة الإسلام تظل لاصقة بهم بغير هذا الجهد الدائب الذي يبذلونه لتثبيتها، متمثلا ذلك الجهد في القيام بأعمال، والامتناع عن أعمال...

فإذا قال قائل إن هذا الأمر متعلق بالآخرة لا بالدنيا، وإن للآخرة حسابها الخاص، يحكم فيه الله بما شاء، فيدخل الجنة – إن شاء – قوما لم يعملوا خيرا قط، ويخرج من النار – إن شاء – قوما لم يعملوا خيرا قط، إنما نحن بصدد الحديث عن الحياة الدنيا، وحكم الإنسان فيها بعد أن ينطق بالشهادتين... فنقول لهم إنه حتى في الحياة الدنيا فإن صفة الإسلام لا تظل لاصقة بالإنسان مدى الحياة بعد نطقه بالشهادتين إلا إذا قام بأعمال، وامتنع عن القيام بأعمال، بصرف النظر عما في داخل قلبه، مما لا يعلم حقيقته إلا الله.

ولسنا هنا – في هذه العجالة – بصدد تفصيل الأعمال التي يجب أن يقوم بها الإنسان أو يمتنع عنها حتى تظل له صفة الإسلام في المجتمع المسلم، فقد تكلمنا عنها في أكثر من كتاب[٤]، إنما نحن معنيون هنا بنقطة واحدة معينة، هي صلة "لا إله إلا الله" بالتحاكم إلى شريعة الله، ومدى وثاقة هذه الصلة، وهل يمكن أن تنفصل العقيدة عن الشريعة في دين الله[٥]...

وقبل أن نتحدث عن هذه القضية نود أن نشير إلى معنى معين يغفله الذين يزعمون أن النطق بالشهادتين – وحده – هو الذي يعطي صفة الإسلام في الدنيا، وأن التصديق والإقرار – وحدهما – يدخلان الناس الجنة في الآخرة، ويحتجون بـ "الجهنميين" الذين يخرجهم الله من النار بعد أن يقضوا فيها ما شاء الله لهم أن يقضوا، ثم يدخلهم الجنة بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم لم يعملوا خيرا قط...

---

[٣] (خير القرون قرني) [أخرجه الشيخان].

[٤] انظر إن شئت فصل؛ "مفهوم لا إله إلا الله"، من كتاب "مفاهيم ينبغي أن تصحح"، وفصل؛ "الصحوة الإسلامية" من كتاب "واقعنا المعاصر".

[٥] تكلمنا عن هذه القضية كذلك في الكتابين السابقين، ولكن الحديث عنها في هذا البحث له ضرورته.

ونقول – كما قلنا في كتاب سابق[٦] – إنه لا حرج على فضل الله؛ {يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ}، ولكن هذا أيضا له شروط! وليس مطلقا كما يظن بعض الناس! والله سبحانه وتعالى هو الذي بين الشروط.

ولنمثل للقضية بلجان الرأفة في الاختبارات – ولله المثل الأعلى – فلجنة الرأفة تنظر في أوراق الذين دخلوا الاختبار ثم رسبوا فيه، فإذا نجح منهم من نجح على يد لجنة الرأفة فذلك لا ينفي عنهم أولا أنهم كانوا راسبين بحسب المقاييس المعتمدة للنجاح. ثم إنهم ثانيا لا بد أن يكونوا قد حضروا الاختبار ثم رسبوا، لأن عمل اللجنة لا يتناول الذين طردوا من الاختبار بسبب الغش – مثلاً – أو بأي سبب آخر... كذلك رحمة الله – {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} – تشمل الذين قصروا في أداء الأعمال وهم مؤمنون، ولكنها لا تشمل الذين طردوا من رحمة الله بسبب الشرك، لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}.

والآن فلننظر في الشرك الذي يخرج الإنسان من دائرة المغفرة ويحجب عنه الجنة.

يبين الله لنا في كتابه المنزل وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أن هذا الشرك ثلاثة أنواع رئيسية، كل واحد منها شرك، وكل منها ناقض لـ "لا إله إلا الله":

الأول: يتعلق بالاعتقاد، وهو اعتقاد وجود آلهة تشارك الله سبحانه وتعالى في النفع والضر، أو الإحياء والإماتة أو تدبير الأمر... إو وجود شفعاء يملكون الشفاعة عند الله فيغيرون حكمه في السموات أو في الأرض.

الثاني: يتعلق بالعبادة، وهو توجيه أي مظهر من مظاهر العبادة لغير الله – معه أو من دونه – كالدعاء أو الإستغاثة أو النذر أو الذبح... إلخ.

الثالث: يتعلق بالتحليل والتحريم – أي التشريع – بغير ما أنزل الله.

ولما كنا في هذه العجالة معنيين بالنوع الثالث من الشرك – وهو شرك التشريع بغير ما أنزل الله – فسنقصر الحديث عليه، متخذين الأدلة عليه من كتاب الله، ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن أقوال العلماء.

بين الله في كتابه المنزل أن الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم قد أرسلوا للناس لا ليدعوهم فقط إلى الاعتقاد بأن الله واحد لا شريك له، ولكن ليبين لهم كذلك أن العبادة

[٦] "مفاهيم ينبغي أن تصحح"، فصل؛ "مفهوم لا إله إلا الله".

والنسك يجب أن توجه لله وحده بلا شريك، ثم ليبلغهم تعليمات من ربهم ينظمون بمقتضاها حياتهم وتعاملاتهم بعضهم مع بعض "ليقوم الناس بالقسط": {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}.

وبين سبحانه أن هذه الثلاثة: الاعتقاد والشعائر والشرائع هي مقتضى قول كل رسول لقومه: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}، وأن نقض أي واحد من هذه الثلاثة – أو إشراك غير الله فيها – ناقض للإيمان.

وقال عن شرك التشريع الذي نحن بصدده في هذا المبحث: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ}، {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ}.

كما قال عن اليهود والنصارى أنه تعالى ألزمهم بالحكم بشريعته، وأن مخالفتهم لأمره تخرجهم من الإيمان: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}، {وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْأِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ، وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْأِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}.

وقال تعالى في بيان أن التشريع بغير ما أنزل الله شرك مخرج من الإيمان مخاطبا المشركين أو منددا بهم: {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ}، {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ}.

وقال عن اليهود والنصارى كذلك في هذا الشأن: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ}.

فلما أنكر ذلك عدي بن حاتم في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: (يا رسول الله، ما عبدوهم!)، بين له عليه الصلاة والسلام أن اتخاذهم أربابا هو نتيجة اتباعهم فيما شرعوا بغير ما أنزل الله، قال عليه الصلاة والسلام: (ألم يحلوا لهم الحرام ويحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم؟ فذلك عبادتهم إياهم)[٧].

---

[٧] رواه الترمذي.

ولما مكّن الله لدينه في الأرض نجم في المجتمع فريق ثالث غير المؤمنين والكافرين الصرحاء، وهم المنافقون – وهم في الدرك الأسفل من النار – أولئك الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وقد تركز كفرهم ونفاقهم في قضية التشريع، فبين الله أن إعراضهم عن شريعة الله وبحثهم عن شريعة أخرى، ينفي عنهم الإيمان جملة، وأنهم لا يؤمنون حتى ينبذوا تلك الشرائع التي يتوجهون إليها، ويعودوا إلى شريعة الله وحدها دون غيرها من الشرائع: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً...}، إلى قوله تعالى: {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً}، {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ}.

*　　　*　　　*

فإذا كانت هذه الآيات – وأمثالها في القرآن كثير – قد بينت صلة الشريعة بالعقيدة، وأنهما لا ينفصلان، وأن التشريع بغير ما أنزل الله شرك مخرج من الملة، فقد بينت أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الصلة الوثيقة حين بيّن عليه الصلاة والسلام ما يكون من أمر الناس حين تخالف شريعة الله، ومن باب أولى حين تنحى شريعة الله ويُحكَمون بشرع غير شرع الله:

– (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)[٨].

– (إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضى وتابع)[٩].

وخلاصة الحديثين أن الرضى بشرع غير شرع الله مخرج من الملة كالتشريع سواء.

*　　　*　　　*

[٨] أخرجه مسلم.
[٩] أخرجه مسلم.

أما أقوال العلماء:

فنختار منها قول ابن كثير رحمه الله في تفسيره للآية الكريمة: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}: (ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بأهوائهم وآرائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان الذي وضع لهم الياسق، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام اقتبسها من شرائع شتى: من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها بمجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعا متبعا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير)[10].

ويقول ابن تيمية رحمه الله: (وبما ذكرته في مسمى الشريعة والحكم الشرعي يتبين أنه ليس للإنسان أن يخرج عن الشريعة في شيء من أموره، بل كل ما يصلح له فهو في الشرع من أصوله وفروعه وأحواله وأعماله وسياسته ومعاملته وغير ذلك، والحمد لله رب العالمين... وحقيقة الشريعة: اتباع الرسل والدخول تحت طاعتهم، كما أن الخروج عنها خروج عن طاعة الرسل، وطاعة الرسل هي دين الله الذي أمر بالقتال عليه، وقال: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ}... فعلى كل من الرعاة والرعية والرؤوس والمرؤوسين أن يطيع كل منهم الله ورسوله في حاله، ويلتزم شريعة الله التي شرعها له)[11].

ويقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: (ولهم شبهة أخرى، يقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم أنكر على أسامة قتل من قال "لا إله إلا الله"، وقال: "أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟"، وكذلك قوله: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا؛ لا إله إلا الله"، وأحاديث أخرى في الكف عمن قالها، ومراد هؤلاء الجهلة أن من قالها لا يكفر ولا يقتل ولو فعل ما فعل، فيقال لهؤلاء... الجهال: معلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون "لا إله إلا الله"، وأن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن "لا إله إلا الله" وأن محمدا رسول الله ويصلون ويَدَّعون الإسلام وكذلك الذين حرقهم على بن أبي طالب، وهؤلاء الجهلة مقرّون أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال "لا إله إلا الله"، وأن من جحد شيئاً من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها، فكيف لا تنفعه إذا جحد شيئا من الفروع وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أصل دين

[10] تفسير ابن كثير: ج ٢/ص٦٧.

[11] مجموع فتاوى، شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم: ج١٩/ص٣٠٩.

الرسل ورأسه؟... فلم تنفعهم "لا إله إلا الله" ولا كثرة العبادة ولا ادعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة)[١٢].

وعلى الرغم من وضوح القضية في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأقوال العلماء، فإن الأمر يختلط على بعض الناس حين يجدون في كتب الفقه أن من لم يحكم بما أنزل الله لا يكفر إلا إذا كان جاحدا، ويجدون ابن عباس رضي الله عنه يقول: أنه ليس الكفر الذي تذهبون إليه، إنه ليس كفراً ينقل عن الملة، كفر دون كفر...

يختلط الأمر عليهم فيحسبون قضية التشريع بغير ما أنزل الله، أو الرضى بشرع غير شرع الله داخلة في هذا الحكم؛ كفر دون كفر، كفر لا يخرج من الملة.

والذي يقوله الفقهاء عن الحكم بغير ما أنزل الله صحيح ولا شك، فليس كل من لم يحكم بما أنزل الله يعتبر كافراً، فقد يكون متأولا، وقد يكون جاهلا بحكم في قضية بعينها، وقد يكون مدفوعا بشهوة معينة كالقاضي المرتشي الذي يخالف حكم الله في القضية المعروضة عليه بتأثير الرشوة وهو عالم بما يفعل، فيكون عاصيا فاسقا ولا يكفر.

فكيف اعتبر مؤمنا وهو لم يحكم بما أنزل الله؟

السبب أنه – مع مخالفته لحكم الله – لم يجعل مخالفته شرعا يحكّمه بدلا من شرع الله، ولم يقل إن حكمه هذا بديل يضاهى حكم الله أو يفضّل على حكم الله، إنما موقفه كالسارق والزاني يخالف في العمل، ولكنه لا يغيّر في الشرع المنزل، ولا يضع بديلا من عند نفسه لشرع الله.

أما حين يشرع بغير ما أنزل الله فالأمر مختلف تمام الاختلاف... فهو عندئذ يضع من عند نفسه تشريعا يحل فيه ويحرم بغير ما أنزل الله، ثم يضاهي به شرع الله، أو يفضّله على شرع الله، وذلك – بإجماع الفقهاء – شرك أكبر مخرج من الملة، لأنه يتعارض مع الإقرار بما جاء من عند الله، وهو المقتضى المباشر – بل المعنى المباشر – لـ "لا إله إلا الله"...

* * *

كيف نزعم لأنفسنا أننا آمنا بأنه "لا إله إلا الله" – أي لا معبود إلا الله، ولا حاكم إلا الله – إذا كنا نقول – بلسان الحال أو بلسان المقال – إنك يا رب قد قلت إن الربا

[١٢] كتاب "الجامع الفريد"، الطبعة الثانية: مقتطفات من ص٢٣٢ و ص٢٣٣.

حرام، أما نحن فنقول؛ إنه مدار الحياة الاقتصادية المعاصرة، لا يقوم الاقتصاد إلا به[١٣]، ولذلك فنحن نقره ونتداوله، ونجعله هو الأصل في تداول المال!

وإنك يا رب قد قلت إن الزنا حرام، وحددت له عقوبة معينة في كتابك المنزل، وفي سنة رسولك صلى الله عليه وسلم، أما نحن فنرى أنه ليس هناك جريمة تستحق العقاب أصلا إذا تم الأمر برضى الطرفين ولم تكن المرأة قاصرا.

وإذا وقعت – من وجهة نظرنا – جريمة فعقوبتها عندنا أمر آخر غير ما قررت! وإنك قد قلت يا رب إن عقوبة السرقة قطع اليد، أما نحن فنرى أن هذه عقوبة وحشية بربرية، إنما عقوبة السرقة عندنا هي السجن، وهي عقوبة مهذبة تليق بإنسان القرن العشرين!

وإنك يا رب قد حرمت الخلوة بالأجنبية، وحرمت الاختلاط بغير محرم، وحرمت على المرأة السفور وإبداء زينتها لغير محارمها، أما نحن فنرى هذه كلها أمورا لا بأس بها ولا حرج فيها ولا ضرر منها، بل نراها من ضرورات الحياة المعاصرة، و "حقوقا" نالتها المرأة "المتحررة" لا سبيل إلى الرجوع عنها، لكي لا نصبح رجعيين متأخرين...

كيف نزعم لأنفسنا أننا آمنا بأنه "لا إله إلا الله" – أي لا معبود ولا حاكم إلا الله – إذا قلنا ذلك، ومئات من أمثاله، بلسان الحال أو بلسان المقال؟

وماذا بقى من "لا إله إلا الله" إذ فعلنا ذلك؟

ماذا بقى سوى كلمة ذاهبة في الهواء، لا رصيد لها من الواقع، ولا قيمة لها في واقع الحياة؟

إن الإقرار بألوهية الله، فضلا عن تفرده سبحانه وتعالى بالألوهية – وهو معنى "لا إله إلا الله" – أمر أضخم بكثير من مجرد أن نوقن في داخل أنفسنا ونقر بألسنتنا أن الله هو الخالق، وأن الله هو الرازق، وأن الله هو المدبر وأن الله هو المسيطر، وأن الله بيده ملكوت كل شئ... وهو ما يريد المرجئة أن يحصروا فيه معنى "لا إله إلا الله"... فقد كان العرب في جاهليتهم يقرون بهذا كله، ومع ذلك لم يعتبرهم الله مؤمنين! {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}، {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}، {قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ

[١٣] الذين يقولون هذا هم المرابون اليهود، ومن عميت قلوبهم من "الأمميين"، أما المستبصرون من الأمميين أنفسهم فيقولون؛ إن النتيجة الحتمية للربا هي تكدس الثروة في يد فئة قليلة من الناس تزداد قلة بمرور الزمن، وازدياد الفقر في فئة كبيرة من الناس يتزايد عددها على الدوام – انظر إن شئت تقرير المستشار الألماني "شاخت" عن الربا –

السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ}.

فما الذي منعهم – وهم يقرون بهذا كله – أن يكونوا مؤمنين؟ وأي شيء جعلهم في حكم الله مشركين؟

أمران رئيسيان: عبادة غير الله، والتحليل والتحريم – أي التشريع – بغير ما أنزل الله: {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ}، {وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ[١٤] إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}.

*　　*　　*

ويعلم الله أننا ما قصدنا بهذا البيان إصدار حكم على أحد من أعيان الناس، فتلك قضية بينا من قبل في كتابين سابقين[١٥] أننا لا نتعرض لها في هذه المرحلة من حياة الأمة، إنما نحن في معرض البيان الواجب، الذي هو أمانة في عنق كل من علم شيئا من حقيقة هذا الدين... فواجبه أن يبين للناس ما جهلوه من شأن هذه الحقيقة لعلهم يغيّرون ما بأنفسهم فيغير الله لهم: {إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}.

ولقد نسيت الأمة في حقبتها الأخيرة كثيرا من حقائق الإسلام التي كانت في حسها بديهيات لا تقبل النقاش.

وكان من بين ما نسيته هذه القضية الخطيرة، وهي وجوب الحكم بما أنزل الله عقيدةً لا يكون المسلم مسلما إذا تخلى عنها، وأن التشريع بغير ما أنزل الله، والرضى بشرع غير شرع الله شرك مخرج من الملة.

ولئن كان الفكر الإرجائي قد مهد السبيل في الماضي لزحزحة الأمة عن كثير من الأعمال الواجبة – أو في القليل برر لها تقاعسها عن تلك الأعمال – على أساس أن العمل ليس داخلا في مسمى الإيمان، وأن الإيمان يتحقق كاملا بالتصديق والإقرار فحسب... فإن الغزو الصليبي – سواء العسكري أو الفكري – قد دفع الأمة دفعة خطيرة وراء آخر الحواجز التي كانت قد وقفت عندها على الرغم من كل تقاعسها وكل انحرافها... فأخرجها من شريعة الله، وهو يزين لها عملها، ويمد لها في الغيّ، ويوهمها أنها ما زالت في دائرة الإيمان...

[١٤] إله خالق رازق مدبر، تقرون بوجوده ولا تتبعون شريعته، وإله مزعوم يشرع لكم فتطيعونه في التشريع.
[١٥] انظر "واقعنا المعاصر" و "مفاهيم ينبغي أن تصحح".

ولقد قاوم المسلمون الغزو العسكري والغزو الفكري بما كان قد بقي فيهم من طاقة... ولكن الخواء الذي كانت تعانيه الأمة من جراء انحرافاتها وأمراضها جعل هذه المقاومة أضعف من أن تقف للغزو الكاسح، فاستتب الأمر للغزاة، وتم لهم ما أرادوه من صرف الأمة عن الإسلام...

ولقد كان لهم من وراء تنحية شريعة الله عن الحكم مآرب عدة... وكانوا يعلمون أنه بعد أن تنقض العروة الأولى – عروة الحكم – ستنقض بقية العرى واحدة إثر أخرى.

كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لتنقضن عرى هذا الدين عروة عروة، كلما نقضت عروة استمسك الناس بالتي بعدها، فأولهن نقضا الحكم، وآخرهن نقضا الصلاة)[16].

كانوا يريدون أن تعمل حركة التنصير في العالم الإسلامي وهي آمنة مطمئنة، لتفتن من تستطيع فتنته عن دينه، ولن تجد هذه الحركة مجالا لو بقيت الشريعة قائمة، ونُفِّذ حد الردة على المتنصر الذي يرتد عن الإسلام.

وكانوا يريدون أن تشيع الفاحشة في المجتمع الإسلامي لتنحل أخلاقه ويسلس قياده للمستعمر، ولم يكونوا ليستطيعوا – والشريعة قائمة – أن يفتحوا بيوتا رسمية للبغاء، تحميها الدولة "المسلمة!" بتشريعاتها وتنظيماتها وشرطتها! ولا أن يفتحوا الحانات لتسقى الناس الخمر علانية باسم "المشروبات الروحية"[17]! ولا أن يفتحوا المراقص للساقطات اللواتي أطلق عليهن فيما بعد لقب "الفنانات!" لتلهية الناس عن صلاتهم وصيامهم، ودنياهم وآخرتهم، باسم الفن والحضارة والتقدم!

وبقى المؤمنون ينكرون ذلك كله بقلوبهم، وقد عجزوا عن إنكاره بأيديهم ويئسوا من إنكاره بألسنتهم، ولكن حتى هذا القدر الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه "أضعف الإيمان"، "وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل"، لم يكن مأمونا عند القائمين بالغزو الصليبي، فقد يشتد يوما حتى يصبح "جهادا" حقيقيا كاسحا هو أشد ما يرهبونه من هذا الدين، ومن ثم سعى الغزو الفكري إلى تثبيت تلك الأوضاع على أنها هي الأصل الذي ينبغي أنْ يتبع، وأن العدول عنه – بالعودة إلى تحكيم شريعة الله – هو الرجعية التي ينبغي أن يبرأ منها المتحضرون.

[16] رواه أحمد.

[17] يطلق الأوربيون على الخمر اسم "المشروبات الكحولية" [Spiritual] ولكن المترجمين الخبثاء ترجموا كلمة [Spiritual]، بالروحية، مستغلين أن الكلمة الأوربية يمكن أن تؤدي كلا المعنيين؛ الروحية والكحولية. والتضليل واضح في الترجمة العربية.

واستعين على ذلك بكل وسائل الإعلام المتاحة من كتاب وصحيفة وقصة ومسرح وسينما وإذاعة – وتليفزيون فيما بعد – كما استعين بمناهج التعليم التي تصور الإسلام وشريعته جمودا وتأخرا ورجعية، وتصور الأوضاع القائمة في أوربا – بجميع جوانبها ومجالاتها – على أنها هي الحضارة والرفعة والتقدم، وتخرج أجيالا وراء أجيال تعرف شيئا عن أوربا[١٨]، ولا تعرف عن الإسلام إلا ما يلقى في روعها من الشبهات!

واستعين فوق ذلك بالفكر الإرجائي الذي يقول إن الإيمان هو التصديق والإقرار، وليس العمل داخلا في مسمى الإيمان، كما استعين بـ "علماء" من علماء الدين ليؤكدوا هذه المعاني الإرجائية في نفوس الناس، بعضهم "طيبون"، تستغل طيبتهم دون وعى منهم، وبعضهم "محترفون" يضللون الناس على علم.

* * *

يا حسرة على العباد!

إن تصور أمة محمد صلى الله عليه وسلم تتحاكم إلى غير شريعة الله لهو أمر مذهل، وأمر بشع... لا يخفف من بشاعته عموم البلوى، ولا ثقلة الأمر الواقع!

كيف تخلت هذه الأمة عن رسالتها، وعن تميزها الذي ميزها الله به؟

هل أخرج الله هذه الأمة لتكون في ذيل القافلة تلهث وراء الركب؟!

وهل أخرجها لتنبهم شخصيتها وتتميع، وتصبح صورة مقلدة بل مشوهة من الجاهلية؟!

ألم يخرجها لتكون قائدة ورائدة وشاهدة على كل البشرية؟! {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}، {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}.

وهل تستطيع أن تحقق شيئا من ذلك حين تتخلى عن شريعة الله وتنتهج شرائع الجاهلية؟

[١٨] لم يكن لديهم معرفة حقيقية عن أوربا، فقد كان في الحضارة الغربية إيجابيات – رغم انحرافاتها الجوهرية – ولم يكن مقصوداً تعليم المسلمين إيجابيات أوربا، ولا كيف يتخذونها من أجل نهضتهم، إنما كان المقصود تعريفهم – جيداً – بالانحلال الخلقي والإلحاد، ليأكل في جسد الأمة الإسلامية.

قد يخطر في بال قوم أن الذي ينقصنا من أجل تحقيق وجودنا هو الطائرات والصواريخ، والالآت والمصانع، والعلم والتكنولوجيا...

وكل ذلك ينقصنا حقا...

ودع عنك الآن أنه ما صار ينقصنا إلا حين تخلفنا عن حقيقة "لا إله إلا الله"، وأننا حين كنا ملتزمين حقا بمقتضيات "لا إله إلا الله" كنا ممكنين في الأرض، سابقين في كل مجالات الحياة، لأن الله جعل كل أسباب الخير الحقيقي في مقتضيات "لا إله إلا الله"، ويسرها لمن يلتزم حقا بـ "لا إله إلا الله".

دع عنك الآن هذا، ولنفترض – مع الخيال الجامح – أننا امتلكنا هذه الأدوات كلها كما تمتلكها "الدول العظمى!" سواء بسواء، ثم لم نطبق شريعة الله... فهل نزيد في ميزان الله على أن نكون أمة جاهلية يمكن الله لها فترة من الوقت ثم يكون مصيرها الدمار في الأرض والعذاب الأليم يوم الحساب! {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

إنما أخرج الله هذا الأمة لأمر أعظم من هذا بكثير...

أخرجها لتكون هي النوذج الذي تحتذيه البشرية، لتهتدي إلى ربها، وتطبق منهجه في الأرض، فتنال خير الدنيا وخير الآخرة، وتنال رضوان الله...

وذات يوم حققت الأمة ذلك النموذج الفذ في عالم الواقع...

ولن تعود إلى التمكين والقوة حتى تعود إلى السبب الذي مكنها من قبل: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً}.

ولن يعبدوه حق عبادته، عبادة خالية من الشرك، حتى يلتزموا بتطبيق شريعة الله: {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً}.

المبحث الثاني
هل لولي الأمر أن يتصرف في أحكام الشريعة بحسب الأحوال

يقول الذين يتلمسون المعاذير والحجج ليتهربوا من الالتزام بتطبيق شريعة الله، إن لولي الأمر أن يتصرف في أحكام الشريعة حسب الأحوال... فقد أوقف عمر حد السرقة عام الرمادة، وأبطل سهم المؤلفة قلوبهم من مصارف الزكاة... فإذا جاز هذا لعمر رضي الله عنه فلماذا لا يجوز للحكام اليوم، وقد تبدلت الأمور تبدلا حادا، يستدعي إعادة النظر فيما يمكن وما لا يمكن، وما يجوز وما لا يجوز؟!

واتهام عمر رضي الله عنه بالتصرف من عند نفسه في أحكام الشريعة حسب أحوال عصره أمر خطير لا يجوز أن يترك بغير تفنيد وتحقيق.

فعمر رضي الله عنه لم يكن حاكما عسكريا يتصرف في الأمور بما تمليه عليه أهواؤه، ولم يكن جباراً في الأرض كالفراعين، يقول: {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ}.

والصحابة رضوان الله عليهم من جانب آخر لم يكونوا ليسكتوا على تغيير شرع الله أو إبطاله مهما يكن الشخص الذي قام بهذا التصرف، عمر أو غير عمر...

ولنذكر جيداً أن عمر رضي الله عنه – برغم كل المهابة التي أضافها الله عليه، وجعل من مظاهرها الجسم الطويل القوي والصوت الجهوري – قام يوما على المنبر فخطب الناس فقال: (أيها الناس اسمعوا وأطيعوا!)، فقال له سلمان الفارسي رضي الله عنه: (لا سمع لك اليوم علينا ولا طاعة!)، فقال عمر رضي الله عنه: (ولمه؟)، قال: (حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذي ائتزرت به، وأنت رجل طوال لا يكفيك برد واحد كما نال بقية المسلمين)! فلما بين له عمر رضي الله عنه أن البرد الذي ائتزر به هو برد ابنه عبد الله، قال سلمان: (الآن مُر! نسمع ونطع!).

ومن ثم فلا عمر رضي الله عنه يتصور منه مخالفة شرع الله، ولا الصحابة رضوان الله عليهم يتصور منهم االسكوت على المخالفة ولو كانت من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

والحق أن الذين يتلمسون المعاذير لا يسمون عمل عمر مخالفة، إنما يسمونه "تصرفا" ليبنوا عليه قاعدة تهفو إليها أفئدتهم لتحللهم من الالتزام بشرع الله، هي أن لولي الأمر أن يتصرف في أحكام الشريعة بما يراه، بحسب الأحوال! وبشئ من "البحبحة" يحلّون أولياء الأمور اليوم من الشريعة بأكملها، بحجة مناسبة الأحوال!

* * *

فلننظر في عمل عمر رضي الله عنه: هل هو "إبطال" للشريعة أو "تصرف" فيها؟ أم هو عين الالتزام بأحكام الشريعة مع الاجتهاد في تحديد الصورة الصحيحة لتطبيقها؟

أوقف عمر حد السرقة عام الرمادة، فما دلالة هذا التصرف؟

فلنرجع إلى مقاصد الشريعة:

إن الإسلام لا يبدأ بتقرير العقوبة ولا بتطبيقها، إنما يسعى أولا لسد منافذ الجريمة حتى لا تقع ابتداء، فإذا وقعت نظر في كل حالة ليضمن أن فاعلها غير معذور، فيقيم عليه الحد وقتئذ وقد ضمن ألا عذر له في ارتكاب الجريمة، فإذا قامت الشبهة فإنها تدرأ الحد...

هذه هي الشريعة، وهذا هو الذي فعله عمر على وجه التحديد!

رأى أن شبهة الجوع الملجئ إلى السرقة قائمة، فدرأ الحد بالشبهة، ولم يقم الحد حتى يطمئن أن مرتكب السرقة غير معذور في ارتكابها... فهل غيّر عمر شرع الله أو أبطل تنفيذه؟ أم إنه كان منفذا دقيقا ملتزما في تطبيقه كل الالتزام؟

أما الاجتهاد الآخر الذي قام به عمر رضي الله عنه فهو إبطال سهم المؤلفة قلوبهم من مصارف الزكاة.

تقول الآية الكريمة: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

وقال عمر رضي الله عنه: (لقد أعزّ الله الإسلام، فلم تعد هناك حاجة لتأليف القلوب).

فهل أبطل عمر رضي الله عنه شرع الله؟ أم إنه نظر في دواعي التطبيق، فوجد – باجتهاده – أن الداعي لتأليف القلوب لم يعد قائما بعد أن أعز الله الإسلام، فلم يعد لهذا السهم باب للإنفاق فيه في تلك الحالة، وهي عزة الإسلام، ودخول الناس فيه طواعية أو خضوعا للغالب المنتصر، وفي كلتا الحالتين لا يحتاج الأمر إلى تأليف القلوب، فالذي دخل طواعية مؤمن صادق قد استقر الإيمان في قلبه، والذي دخل خضوعا للغالب المنتصر قد وجد السبب الذي يدعوه للإسلام فدخل فيه استجابة لذلك السبب، وهو كافٍ عنده للدخول فيه!

لو قال عمر: إن هناك من نحتاج إلى تأليف قلبه للإسلام، لأن الإسلام لم يتمكن في الأرض بعد، ولكني أرى مع ذلك ألا أنفق هذا السهم من الزكاة لتأليف القلوب... لو قال ذلك – وحاشا لعمر المؤمن التقي أن يقوله – لوقعت عندئذ المخالفة التي لا تقبل من عمر ولا غير عمر، لأنها تكون عندئذ تغييرا وتبديلا في شرع الله.

أما قيام حالة لا يكون النص منطبقا فيها، فلا يطبق النص لعدم انطباقه على الحالة القائمة، فتصرف أبعد ما يكون عن التغيير أو التبديل في شرع الله.

ونأخذ مثالاً من حالة أخرى للتوضيح:

يقول يحيى بن سعيد: (بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها، فطلبت فقراء أعطيها لهم فلم أجد، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس، فاشتريت بها رقيقا فأعتقتهم).

فهل نقول؛ إن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أبطل الشريعة أو عدل فيها لأنه لم ينفق سهم الفقراء من أموال الزكاة؟ أم نقول إنه وجدت حالة لم ينطبق فيها النص فلم يطبق؟

وكذلك تصرف عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سواء في عدم تطبيق حد السرقة عام الرمادة، أو وقف إنفاق السهم الخاص بالمؤلفة قلوبهم من أموال الزكاة.

فأين من هذا دعوة الداعين إلى إعطاء "أولياء الأمور" حق إبطال الشريعة بكاملها والاستعاضة عنها بالشرائع الجاهلية... بحجة عدم مناسبة الأحوال؟!

*　　*　　*

إن "ولي الأمر" في الإسلام يكون شرط توليته، الذي يعطيه شرعية تولي الأمر، والذي بدونه لا تكون له شرعية، هذه الشرط هو تطبيق شريعة الله، فكيف يكون من حقه إبطال شرط توليته ومصدر شرعيته؟!

وولي الأمر له على رعيته حق السمع والطاعة، ولكن في حدود طاعته هو لله ورسوله، فإن عصى الله ورسوله – بتعطيل شيء من شرع الله – فلا طاعة له على الناس.

يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}.

وظاهر من البناء اللغوي للآية أن الطاعة لله مطلقة، كذلك الطاعة للرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن ليست كذلك الطاعة لأولي الأمر... ولو قال تعالى: "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأطيعوا أولي الأمر منكم" لوجبت طاعتهم مطلقا كطاعة الله وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن الله جل شأنه لم يقل ذلك، وإنما عطف طاعة أولي الأمر على طاعة الله والرسول بدون تكرار الأمر "أطيعوا"، لتظل طاعتهم مقرونة دائما بحدود ما أنزل الله، ويؤكد ذلك عَجُزُ الآية الذي يبين المرجع في حالة التنازع وهو الله والرسول فحسب.

وهكذا فهم الخليفة الأول رضي الله عنه حين قال للأمة: أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم.

فإذا كانت هذه هي حدود الأمر في الإسلام، فكيف يتصور أحد أن يكون لولي الأمر حق مخالفة الله ورسوله والله يقول: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}.

ثم كيف يتصور أحد حين يخرج ولي الأمر عن طاعة الله ورسوله بإبطال شريعة الله، يكون له حق السمع والطاعة على رعيته، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقرر أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؟

(لا طاعة في معصية)[١٩].

(إنما الطاعة في المعروف)[٢٠].

* * *

كلا! ليس لولي الأمر أن يتصرف في الشريعة بالإبطال أو التعديل أو الاستبدال، لأن هذا الحق ليس لأحد على الإطلاق، لا الحاكم ولا المحكوم.

ولا يوجد سبب واحد في الأرض يبرر لولي الأمر أن يفعل ذلك، لا الله أذن له، ولا السوابق التي يتصيدونها من تصرفات عمر رضي الله عنه تؤيدهم فيما يذهبون إليه.

ومحك الإيمان، الذي بينه الله في كتابه المنزل هو التحاكم إلى شرع الله أو الإعراض عنه: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

فهؤلاء يقولون "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ}، ثم يزيدون على ذلك فيزعمون أنهم مطيعون لله ورسوله والله يقول عنهم: {وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ}، فينفي عنهم ما زعموه من دعوى الإيمان، ويبين أن السبب في نفي الإيمان عنهم أنهم إذا دعوا إلى شريعة الله أعرضوا عنها، إلا حين يكون لهم مصلحة ذاتية في تطبيقها! ويبين تعالى موقف المؤمنين الحقيقيين إذا دعوا إلى شريعة الله فإنهم على الفور يقولون سمعنا وأطعنا، بصرف النظر عما يصيب ذواتهم من تطبيقها، إنما هي الطاعة المطلقة لله ورسوله، هي صفة المؤمنين، وهي سبيل الفلاح في الدنيا والآخرة.

* * *

[١٩] أخرجه الشيخان.

[٢٠] أخرجه الشيخان.

والذين يتصيدون الحجج والمعاذير يقولون: كيف نقيم حد السرقة والناس جياع؟ أليس علينا أن نسد جوعتهم أولا؟ فلنصلح أحوالنا الاقتصادية أولا ثم نشرع بعد ذلك في تطبيق الشريعة!

وهي مجرد مراوغة لا تنطلي على أحد.

فلنطبق الشريعة الآن في هذه اللحظة، ولا خوف من وقوع الظلم على أحد في ظل شريعة الله!

إننا حين نطبق الشريعة الآن في هذه اللحظة فلن نطبق حد السرقة على الجائع الذي يسرق ليأكل، لأن شبهة الجوع الملجئ إلى السرقة تدرأ عنه الحد... فلا نحتاج إذن إلى تعطيل تطبيق أحكام الشريعة حتى نصلح الأحوال الاقتصادية، لأنه لا تطبيق الشريعة سيعطل إصلاح الأحوال الاقتصادية – بل العكس هو الصحيح – ولا سيقع الظلم على أحد من تطبيق الشريعة لأن الله لا يظلم أحدا كما أخبر سبحانه عن نفسه في كتابه المنزل.

وكما روى عنه رسوله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا)[٢١].

ويقول آخرون: كيف نقطع يد السارق الذي سرق ليأكل، ونترك سارق الملايين؟! لا يجوز تطبيق الشريعة في هذه الأحوال الراهنة!

كأنما تطبيق الشريعة سيؤدي إلى هذا أو ذاك!

فأما السارق الذي سرق ليأكل فلن يقام عليه الحد كما بينا، لأن شريعة الله تقضي بعدم إقامة الحد عليه، وأما سارق الملايين فأي نص في شريعة الله يحميه؟!

وأما إذا تقاعست الأمة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخافت سطوة ذوي السطوة، فأصبح الحال كما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم حال الهالكين: إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، فهي من جهة تحمل وزر نفسها في الدنيا وفي الآخرة، ومن جهة أخرى فلن يوجد نظام يحميها من سطوة ذوي السطوة، فتلجأ إليه بعيدا عن شريعة الله!

[٢١] أخرجه مسلم.

إن الذين يتلمسون الحجج والمعاذير ليتهربوا من تطبيق شريعة الله يقولون: الديمقراطية! الديمقراطية! أو يقولون: الاشتراكية! الاشتراكية! فكم من ألوف الملايين سرقت من دماء الشعوب "الإسلامية!" تحت ظل الديمقراطية المزيفة وتحت ظل الاشتراكية؟!

وكيف اكتنزت طبقات لا أصول لها، وجاعت الملايين؟ وكيف صارت أقوات الشعب وضروراته تباع في السوق السوداء، وصارت القروض تأتي من كل مكان فلا تنفق في مواضعها، ولا يستفيد منها الصالح العام إلا القليل بينما تتحمل الملايين من أقواتها الضرورية فوائد القروض؟!

كلا! إننا إذ نادينا بتعطيل الشريعة الإسلامية من أجل حماية الملايين، فتلك حجة داحضة، ولن يحمي حقوق الملايين شيء حماية الشريعة الإسلامية لها، بشرط أن تقوم الأمة بتبعاتها، فتراقب حكامها، وتأطرهم على الحق أطرا كما وجهها رسولها الكريم صلى الله عليه وسلم... لأن ذلك من مقتضيات "لا إله إلا الله": {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}.

(كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم، ولتقصرنهم على الحق قصرا، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض)[٢٢].

* * *

إذا علمنا يقينا أنه ليس لـ "ولي الأمر" أن يتصرف بإلغاء الشريعة، أو تعطيلها، أو تأجيلها، وليس للأمة أن تطيعه إن فعل ذلك أو تقره عليه... فبقى أن نعرف حدود ولي الأمر في التصرف.

إنما يجوز له - بل يجب عليه - أن يتصرف في المصالح المرسلة، التي لم يرد فيها نص، بما يحقق مصلحة الأمة، بحيث لا يخالف مقاصد الشريعة، ولا يحل حراما ولا يحرم حلالا. كما يجوز له أن يتصرف في الأمور المتغيرة، التي تتغير بتغير الأحوال[٢٣]، والتي نزلت فيها الأصول العامة التي تضبط حركة الأمة خلال حركتها التاريخية، وترك للاجتهاد استنباط الأحكام المناسبة لكل عصر، بنفس الشروط السابقة وهي عدم الخروج على مقاصد الشريعة، وعدم تحليل الحرام ولا تحريم الحلال، إما الأمور الثابتة، ومن بينها الحدود، وعلاقات

[٢٢] رواه أبو داود.

[٢٣] راجع المبحث الثالث.

الجنسين، وعلاقات الأسرة... إلخ، فليس لأحد أن ينقلها من الخط الثابت إلى الخط المتغير بأي عذر من المعاذير!

المبحث الثالث
شبهة التطور وعدم ملاءمة الشريعة للأحوال المستجدة في حياة الناس

هل تصلح الشريعة التي نزلت قبل أربعة عشر قرناً أن تحكم الواقع المعاصر، وقد جدّ في حياة الناس بعد الثورة الصناعية وتقدم العلم وتشابك العلاقات البشرية وتعقدها ما لم يكن قائما وقت نزول هذه الشريعة؟

وإذا كان تطبيق الشريعة قد ظل ممكناً طيلة القرون العشرة التي تلت نزولها بسبب بطء التغيرات التي جدت في حياة الناس، وانحصارها في أمور ليست بعيدة الشبه بالأحوال التي نزلت فيها الشريعة، فهل تظل على الدرجة ذاتها من إمكان التطبيق بعد أن كادت تندثر الأحوال الأولى، وجدت بعدها أحوال تكاد تكون مبثوثة الصلة بما كان من قبل؟!

كذلك يفكر بعض الناس... ولعل هذه هي أهم القضايا التي تثور في ذهن "المثقف" الغربي تجاه تطبيق الشريعة، وخاصة إذا كان من المغرقين في الأخذ بالتفسير المادي للتاريخ، الذي يتبناه التفكير الماركسي، وإن الغرب "الليبرالي" يشارك فيه بقدر ليس بالقليل[٢٤].

ونريد هنا أن نناقش الأمر من طرفيه معاً؛ قضية "التطور" الذي يغير الحياة على الدوام، وقضية ثبات الشريعة كما نزلت قبل أربعة عشر قرناً من الزمان.

---

[٢٤] في الحقيقة لا يوجد فارق جذري بين التفكير "الليبرالي" الذي يتبناه الغرب الرأسمالي، والتفكير الجدلي المادي الذي يتبناه العالم الشيوعي تجاه قضية التطور بالذات، إنما هو فارق في الدرجة لا في النوع.

هذا التطور، ما حقيقته؟ هل هو شامل لكل كيان الإنسان وكل أمور حياته؟ أم إن في النفس الإنسانية وفي واقع الحياة البشرية أموراً ثابتة وأخرى متغيرة؟ وما الثابت وما المتغير على وجه التحديد؟ وهل العبرة في النهاية بالأمور الثابتة أم بالأمور المتغيرة؟ أم بهما معاً؟ وعلى أي نحو يتم التوفيق بين الثابت والمتغير؟

وهذه الشريعة، كيف تتعامل مع الثابت والمتغير في حياة الناس؟ وهل هي حقاً "جامدة" بحيث لا تتسع لما يجدّ في حياة الناس، أم إن فيها من المرونة ما يجعلها تستوعب الجديد؟ وما الضوابط التي تحكم عملية التوفيق بين الثابت والمتغير في أمور الحياة؟

* * *

يوجد في الغرب منذ بدايات هذا القرن[٢٥] ما يمكن أن نطلق عليه "لوثة التطور".

فقد أحدثت نظرية التطور التي نادى بها "دارون"[٢٦] هزة عنيفة في الحياة الأوربية في جميع مجالاتها، ولم يقتصر الأثر على مجال علم الحياة بالذات، الذي كان "دارون" يحصر بحثه في نطاقه، ذلك أن النظرية[٢٧] – وإن حصرت مجال بحثها في نطاق علم الحياة – قد تعدت هذا النطاق بإيحاءاتها الخطيرة التي شملت مجالاً واسعاً من الفكر والاعتقاد، كما أن هناك من استغل هذه الإيحاءات استغلالاً مقصوداً لتدمير بعض المفاهيم السائدة، وإحلال مفاهيم أخرى بدلاً منها، تخدم أغراض فريق معين من الناس، وبذلك امتدت إيحاءات النظرية وتأثيراتها إلى مجال العقيدة، وكذلك مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق والفن والفكر... وكلها من مجالات التشريع.

كان مما قررته تلك النظرية – أو بالأحرى ذلك الفرض العلمي – أن "الخلق" يتم بطريقة ذاتية، ولا دخل فيه للإرادة الإلهية[٢٨]، وأن الطبيعة هي الخالق[٢٩]، وأن الطبيعة لا قصد

[٢٥] القرن العشرين الميلادي.

[٢٦] هو العالم البريطاني "تشارلس دارون" الذي كان متخصصاً في علم الحياة، ونادى بنظرية التطور [Evolution] التي قال فيها؛ إن الكائنات الحية ظلت تتطور من الكائن الوحيد الخلية – أول الكائنات الحية على ظهر الأرض – إلى الإنسان مروراً بحلقات متعددة منها اللافقاريات فالأسماك، فالبرمائيات، فالطيور، فالثدييات الدنيا، فالثدييات العليا، فالقردة، فالقردة العليا، فالإنسان، على افتراض وجود حلقة مفقودة هي الإنسان القرد.

[٢٧] هي في الحقيقة فرض علمي لم يرتق إلى مرتبة النظرية، كما سيجيء.

[٢٨] يقول دارون: (إن تفسير النشوء والارتقاء التطور بتدخل الإرادة الإلهية يكون بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت) [This would be to introduce a supernatural element in a completely mechanical position].

لها من الخلق ولا غاية[30]، وأن التطور يرجع إلى ضغط الظروف المادية المحيطة بالكائن الحيّ ولا دخل للكائن الحيّ فيه ولا إرادة له تجاهه[31].

وتلك كلها – كما ترى – أمور أوسع من دائرة علم الحياة، وإن كان "دارون" نفسه لم يستخدمها إلا في نطاق ذلك العلم، فإن افتراض الخلق الذاتي[32]، وافتراض أن الطبيعة لها القدرة على الخلق، وأنها تخبط خبط عشواء بلا حكمة ولا تدبير ولا قصد، هذه كلها أمور تمس العقيدة، وتعارضها معارضة أساسية، وفضلاً عن ذلك فإنها لا بد أن تؤثر في وجدان الإنسان الذي يؤمن بها، فتغير مفاهيمه وقيم حياته، كما تغير أحواله السلوكية، فثمت فرق واضح بين إنسان يؤمن بأن الله هو الذي خلقه، وخلقه لهدف معين، ورسم له منهجاً معيناً يعينه على تحقيق ذلك الهدف، وسيسأله في النهاية عن مدى تحقيقه لما أمره به، وإنسان يؤمن بأن الطبيعة هي التي خلقته، وخلقته صدفة بلا قصد، ولم ترسم له منهج حياة معين، ولا هي ستسأله عن تحقيق شيء بعينه!

{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}، {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ}، {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ}.

كما أن افتراض أن التطور – على فرض ثبوته ثبوتاً قاطعاً[33] – يتم فقط بضغط الظروف المادية المحيطة بالكائن الحيّ، وليس لله دخل فيه، كما أن الكائن الحيّ – بما في ذلك الإنسان – ليس له دخل فيه، ولا إرادة له تجاهه، يحدث تصوراً معيناً عند من يؤمن به، يجعل الإله في حسه هو "المادة"، ويجعل الإنسان عبدا لها، محكوماً بقوانينها، لا يملك الفكاك

---

[29] يقول دارون: (إن الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق) [Nature creates everything and there is no limit to its creativity].

[30] يقول: (إن الطبيعة تخبط خبط عشواء) [Nature works haphazardly].

[31] انظر في ذلك كله كتابه "التطور" [Evolution]، وكتابه "أصل الأنواع" [Origin of Species]، في أماكن متعددة منهما.

[32] يلاحظ أن دارون أطلق الفرض – غير العلمي – ولم يُقِمْ أي دليل عليه، وكذلك القول بالطبيعة الخالقة، والطبيعة التي تخبط خبط عشواء... وهذه الفروض كلها جزء أساسي من "النظرية"! ومع ذلك فقد انتشرت في المجال العلمي كأنها حقائق ثابتة! ويلاحظ من الجانب الآخر أن هناك نظريات علمية جديدة ترفض الفرض الدارويني من أساسه.

[33] ليس كل العلماء يسلمون بالتطور، وليس كل الذين يسلمون به يوافقون على أنه تم على ذات النسق الذي افترضه دارون.

من أسرها، ويجعل القيم المعنوية لا وزن لها في حياته، لأنها – إن آمن بها – لا تزيد في حسه على أن تكون انعكاساً للأوضاع المادية، ونتاجاً لها، مباشراً أو غير مباشر.

وذلك – في الحقيقة – هو عين الأثر الذي تركته الداروينية في الفكر الغربي، على وعي من الناس أو غير وعي!

على أن الأمر في الواقع لم يتم من جراء التأثير للفكر الدارويني، وهو في ذاته كاف عند من يؤمن به لأن يحدث في نفسه تغييراً شاملاً، وإنما كان اليهود – المتربصون أبداً للإفساد[٣٤] – كأنهم في انتظار هذه القذيفة المدمرة، فسعوا بها في كل مجال، ينشئون على أساسها نظريات "علمية" في الاقتصاد وعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرها من المجالات، كلها مُعادٍ للفكر الديني والقيم الدينية[٣٥]، كما ينشئون – بفضل سيطرتهم على الثورة الصناعية[٣٦] – مجتمعاً بلا دين ولا أخلاق ولا تقاليد، تنفيذاً لمخططهم في استعباد البشر – بعد إفسادهم – ليكونوا خدماً لشعب الله المختار[٣٧].

ولقد تمت لليهود السيطرة – بقدر من الله – استثناءً من حالتهم الدائمة التي توعدهم الله بها: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ}.

وهذا الاستثناء ذاته وارد في كتاب الله لحكمه يريدها الله: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ}.

[٣٤] يصفهم الله تعالى بقوله: {وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}، فيجعل السعي للإفساد صفة دائمة فيهم، وديدنا لهم.

[٣٥] كنظرية ماركس في الاقتصاد، ونظرية فرويد في علم النفس، ونظرية دور كايم في علم الاجتماع، ومذهب "العبثية" عند سارتر، وغير أولئك من اليهود كثير.

[٣٦] سيطر اليهود على الثورة الصناعية منذ نشأتها عن طريق الإقراض بالربا، مما مكنهم من جمع الثروات الطائلة، وجمع الذهب والتحكم به في عملات الدول، كما مكنهم من السيطرة على وسائل الإعلام العالمية، فاستطاعوا عن طريق ذلك كله التحكم في سياسة المعسكرين معاً – الشرقي والغربي – والتحكم في الاقتصاد العالمي، والتحكم في أفكار الناس وسلوكهم وأخلاقهم، وبث المذاهب الفكرية الهدامة، وبث ألوان من "الجنون" مختلفة، كجنون الجنس، وجنون الكرة، وجنون "المودة"، وجنون الزينة، وجنون السينما والإذاعة والتلفزيون والفيديو... الخ.

[٣٧] يقول التلمود – وله عند اليهود قداسة تفوق قداسة التوراة –: إن الأمميين هم الحمير الذي خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار، وقد تعلم اليهود أن السبيل الوحيد لاستحمار الإنسان هو إفساد عقيدته وأخلاقه، فيصبح البشر؛ {كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ}، كما وصفهم الله في كتابه العزيز، ومن ثم يسهل على الشيطان وأوليائه أن يوجهوهم حيث شاءوا.

ولعله عقاب للبشرية على كفرها، وتبجحها بالكفر: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ}.

وعقاب للأمة المسلمة بالذات من أجل تفريطها في رسالتها لنفسها ورسالتها للبشرية: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}.

وليس هنا على أي حال مجال الحديث عن دور اليهود في نشر الداروينية وجعلها منبعاً لإفساد العقائد والأفكار والسلوك، إنما نريد فقط أن نركز الحديث عن فكرة التطور وتأثيرها في إثارة شبهة عدم إمكان تطبيق الشريعة الإسلامية عند المنخدعين بالغزو الفكري من المسلمين[٣٨].

كان من بين الأسباب التي أدت إلى الهزة العنيفة التي أحدثتها فكرة التطور في الحياة الأوربية أن الفكر الكنسي السائد في أوربا في العصور الوسطى[٣٩] كان يتصور الثبات المطلق في كل شيء، وينادي بالثبات الدائم في كل شيء، فجاءت فكرة التطور مصادمة تماماً لذلك الفكر، بحيث بدا ألاّ سبيل للقاء بينهما، وأنه لا مناص من أن يترك أحدهما مكانه للآخر بكامله، فإما الثبات الكامل في كل شيء، وإما التطور الكامل في كل شيء، ولا طريق ثالث! ولما كان النفوذ الكنسي – الذي يتبنى فكرة الثبات – كان قد أخذ ينهار رويداً رويداً منذ القرن السادس عشر الميلادي، منذ قامت "النهضة" على أسس معادية للدين أو معارضة له، وكان النفوذ العلمي والعلماني – الذي تبنى فكرة التطور – قد أخذ يتزايد في الحياة الأوربية باستمرار، فقد كان الظاهر من مجرى الحوادث أن فكرة الثبات المطلق في كل شيء هي التي عليها أن تغادر الساحة – مهزومة – لتخلي مكانها لفكرة التطور المطلق في كل شيء، سواء كان مما يقبل التطور فعلاً أو كان غير قابل للتغيير!

ولا شك أن الفكر الكنسي لم يكن خاطئاً كله، وإن لم يكن على صواب في كثير من الأمور.

---

[٣٨] انظر – إن شئت – في بيان دور اليهود في إفساد أوربا، ومسؤولية الأمة المسلمة في ذلك الشان، ومحدودية المدى الذي تستمر فيه الفترة الاستثنائية لسيطرة اليهود؛ "مذاهب فكرية معاصرة ، فصل؛ "دور اليهود في إفساد أوربا".

[٣٩] تسمي أوربا عصورها الوسطى "العصور الوسطى المظلمة"، وهي على حق كامل في هذا الوصف، ولكنها كانت مظلمة في أوربا وحدها، بينما كانت الفترة ذاتها من أزهى عصور العلم والعرفان واليقين في العالم الإسلامي، وتنسب أوربا ظلام عصورها الوسطى إلى "الدين"، وهي صادقة في هذا بالنسبة لدينها المحرف، لا بالنسبة للدين في ذاته، كما يرى المخدوعون بالغزو الفكري، فقد كان "الدين" هو مصدر النور بالنسبة للمسلمين في ذات الفترة.

فاعتقاد الثبات في قضية الألوهية اعتقاد حق – بصرف النظر عن انحراف الكنيسة في قضية التثليث، وقضية تأليه عيسى، وادعاء بنوته لله – فالله سبحانه وتعالى دائم، حيّ قيوم، أزلي أبدي لا تتغير ذاته ولا تتغير أسماؤه ولا صفاته، واعتقاد الثبات في قضية الخلق اعتقاد حق، بمعنى أن الله هو الخالق، وأن كل شيء من خلقه، وأنه هو المهيمن على الخلق، المدبر لملكوت كل شيء. كذلك الاعتقاد بثبات وضع الإنسان في الأرض، بمعنى أن الله هو الذي خلقه، وأهبطه إلى الأرض ليقضي فيها أجلاً مسمى ومهمة معينة، ثم يموت ليبعث ويحاسب على ما قام به من عمل في الحياة الدنيا ثم يخلد في الملكوت – أي الجنة – أو يخلد في العذاب.

أما اعتقاد الثبات في الأجرام السماوية، وفي الموجودات على الأرض، وفي النظم والأشكال والأنماط، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية... فلم يكن تصور الكنيسة فيه صائباً ولا واعياً، وكان أكثره يصدر عن جهل مطبق بالسنن الربانية ذاتها، فضلاً عن العلوم الكونية التي كان نصيب أوربا منها في العصور الوسطى أضأل نصيب.

وأياً كان الأمر فقد ظل هذا الفكر سائداً – بخطئه وصوابه – طيلة العصور الوسطى حتى بدأت النهضة الأوربية بتأثير احتكاك أوربا بالمسلمين، سواء الاحتكاك السلمي بانتقال علوم المسلمين وثقافتهم وحضارتهم من الأندلس إلى أوربا عن طريق ابتعاث أبناءها إلى هناك لطلب العلم، ثم قيامهم بترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية والإغريقية، أو الاحتكاك الحربي في الحروب الصليبية التي قادتها أوربا ضد المسلمين في الشرق.

وقد حدث – نتيجة ظروف كثيرة متشابكة لا مجال لتفصيلها هنا[٤٠] – أن أخذت أوربا علوم المسلمين وحضارتهم دون أن تأخذ الإسلام، الذي انبثقت منه في حياة المسلمين تلك العلوم وتلك الحضارة؛ فنشأت عندها حضارة معادية للدين، أو في القليل مبتعدة عنه، ترفض أن ترجع في شيء من أمور الحياة إلى الوحي الرباني، وتفضل أن ترجع إلى فكر "الإنسان" وإلى المعرفة البشرية[٤١].

وحين قام "دارون" ينادي بنظرية التطور لم يكن الفكر الأوربي قد تهيأ بعد لقبولها بكل تفصيلاتها وكل إيحاءاتها، خاصة وهي تنزع عن "الإنسان" كرامته الإنسانية، وترده إلى أصل حيواني بحت، وتنزع عنه تفرده الذي يعتز به، وترده مجرد واحد من الكائنات التي وجدت على الأرض صدفة؛ وهو متطور نعم! ولكنه مع ذلك حيوان! أو كما سماه أحد الداروينيين "القرد الأملس" [The Hairless Ape] – أي الذي لا يكسو جسده الشعر! –

[٤٠] انظر: "مذاهب فكرية معاصرة"، فصل؛ "العلمانية"، وكذلك: "العلمانية" لسفر عبد الرحمن الحوالي.

[٤١] هذا هو منشأ "العلوم الإنسانية" في أوربا، أي العلوم التي يرجع فيها إلى العلم البشري لا إلى الوحي الرباني! وهكذا ولدت تلك العلوم معادية للدين من أول لحظة!

ولكن أوربا مع ذلك تقبلت الداروينية على تردد في مبدأ الأمر، ثم خف التردد تدريجياً، حتى انقلب في نهاية الأمر إلى حماسة جياشة لا تبقي مجالاً لثبات أي شيء على الإطلاق... لا الدين ولا الأخلاق ولا التقاليد ولا القيم ولا الأفكار؛ كما كانت قد أقتنعت من قبل أنه لا ثبات لشيء في الكون المادي... لا الأجرام السماوية ولا الأفلاك، ولا الكائنات الأرضية من نبات أو حيوان... إو إنسان!

وكان وراء ذلك التحول الذي تم خلال عقود قليلة من الزمن عدة أمور...

فالثورة الفرنسية كانت قد هزت أوضاعاً ثبتت من قبل في أوربا وغيرها من بلاد العالم عدة ألوف من السنين.

والثورة الصناعية كانت قد هزت أوضاعاً أخرى، ثبتت هي الأخرى من قبل عدة ألوف من السنين، منذ تعلم الناس الزراعة وعاشوا عليها، فإذا الزراعة تصبح شيئاً هامشياً في حياة الناس، ويتجه الاهتمام إلى الإنتاج الصناعي المتزايد، وإذا المرأة التي ظلت دهوراً طويلة من حياة البشرية قابعة في بيتها، عاكفة على شئون زوجها وأبنائها، تخرج إلى العمل في المصانع، وتنتج من جراء ذلك "قضية" تشغل البشرية قرناً كاملاً من الزمان[٤٢].

ووراء ذلك كله كان اليهود المتربصون للإفساد، ينتهزون الفرصة السانحة، فيعيثون فساداً في الأرض، مستغلين الداروينية وإيحاءاتها في تدمير كل القيم الثابتة في حياة الإنسان! ومستغلين النفور من الكنيسة وطغيانها لتدمير كل ما يتعلق بالدين[٤٣]!

*　　*　　*

ونحن هنا لا ندخل هنا في مناقشة علمية مع الداروينية، فذلك متروك لأهل الاختصاص[٤٤].

[٤٢] راجع إن شئت في نشاة "قضية المرأة" في أوربا، وما أحدثته من آثار في المجتمع الأوربي؛ "دور اليهود في إفساد أوربا"، من كتاب؛ "مذاهب فكرية معاصرة".

[٤٣] راجع كذلك "مذاهب فكرية معاصرة"، التمهيد الأول: "دور الكنيسة"، والتمهيد الثاني: "دور اليهود في إفساد اوربا".

[٤٤] سبق أن اشرنا إلى أن الفروض الدارونية ليست مسلمة عند العلماء، وأن هناك علماء يرفضونها تماما، وآخرون يرونها على صورة اخرى غير ما تصورها دارون، انظر على سبيل المثال: "موريس بوكاي/ أصل الإنسان"، ترجمة مكتب التربية الخليجي.

وإن كنا نحيل القارئ إلى عالم دارويني من علماء ما يسمى "الداروينية الحديثة" [Neo Darwinism] هو "جوليان هكسلي" الذي قال في كتابه "الإنسان في العالم الحديثً" [Man in the Modern World]: (إن الإنسان متفرد في كيانه كله، حتى الكيان "البيولوجي" ذاته، فضلاً عن تفرده في كيانه العقلي وكيانه النفسي الذي لا مثيل له في سائر الكائنات)[٤٥].

ولكننا – مع عدم دخولنا في نقاش علمي مع نظرية "دارون" – نقول إن العلم اليوم قد تقدم كثيراً عنه في أيام "دارون"، واكتشف العلماء – خاصة بعد تفجير الذرة، ثم تفجير نواتها – أن هناك سننا ثابتة في هذا الكون رغم التغير الدائم في صوره وأشكاله، وهذا ما لم يكن واضحاً تمام الوضوح عند "دارون"، فصحيح أنه اكتشف سنة التطور، ولكنه لم يكتشف السنن الثابتة التي يتم في نطاقها التطور، بل قال – عن جهالة – إن "الطبيعة" تخبط خبط عشواء!

لقد اكتشف العلماء أن هناك نسقاً ثابتاً في بناء الكون كله، هو المتمثل في تركيب الذرة من نواة موجبة وكهارب سالبة تدور حولها بسرعة معينة، وأن الفرق بين عنصر وعنصر ليس فرقاً في هذا النسق الثابت، إنما هو في عدد الوحدات التي تتكون منها ذرة كل عنصر؛ وأن هناك تحولات كثيرة تمت في الكون خلال ملايين السنين، ولكنها لم تغير هذا النسق الثابت، ولم تغير كذلك الطريقة التي يتم بها التحول من حالة إلى حالة ومن صورة من صور المادة إلى صورة مغايرة... وان وراء ذلك كله قوة مدبرة تحكم النسق الثابت وتحكم طريقة التغيير[٤٦]!

كما اكتشف علماء الحياة من أسرار الخلية الحية ما أقنعهم كذلك بثبات السنن التي تحكم عمليات التحول في بناء الخلية، وأن التحول لا يتم خبط عشواء[٤٧]!

تلك إذن هي الصورة الصحيحة التي اهتدى إليها العلم، سنن ثابتة وصور متغيرة، أو قل: صور متغيرة تدور حول محاور ثابتة.

ولو اهتدى "دارون" إلى تلك الحقيقة لحسم القضية، ولما ترك لليهود الفرصة يعيثون بالداروينية فساداً في الأرض[٤٨]!

---

[٤٥] راجع: جوليان هكسلي، "الإنسان في العالم الحديث"، ترجمة حسن خطاب ومراجعة الكتور عبد الحليم منتصر، فصل؛ "تفرد الإنسان"، إصدار مشروع الألف كتاب، وزارة التعليم العالي، القاهرة، ١٩٥٦.

[٤٦] انظر العالم الأمريكي "هوكنج" [Hoking] في كتاب [A Brief History of Time]، طبع الولايات المتحدة، الناشر "بانتام " [Bantam]، أبريل ١٩٨٨.

[٤٧] انظر "موريس بوكاي"، "أصل الإنسان"، سبقت الإشارة إليه.

ولكن الذي حدث بالفعل أن الفكر الدارويني ظل ينمو ويتسع نطاقه حتى غشّى مجالات البحث كلها، بما فيها دراسة التاريخ، وعلم الاجتماع، وقيل في التفسير الجدلي للتاريخ[٤٩]، كما قيل في علم الاجتماع: إنه لا ثبات لشيء على الإطلاق في حياة الإنسان.

وقال "دور كايم"[٥٠]: (كان المظنون أن الدين والزواج والأسرة هي أشياء من الفطرة[٥١]، ولكن دراسة التاريخ تطلعنا على أن هذا الأمر ليس حقيقة!)[٥٢].

وقيل من بين ما قيل: إن البشرية قد مرت في ثلاثة أطوار: طور السحر ثم طور الدين، ثم طور العلم! وإنه كما أخلى السحر مكانه للدين، فقد أخلى الدين مكانه للعلم!

* * *

ونترك أوربا، وما حدث فيها من اختلالات فكرية، ابتداء من الدين الكنسي المحرف إلى التمرد على الدين واتخاذ "العلمانية" منهجا للتفكير ومنهجا للحياة، وتفشي لوثة التطور ولوثة الإلحاد، والنظر إلى كل "ثابت" على أنه رجعية وتأخر، وإلى كل "متطور" على أنه تقدم ورفعة ورقي...

نترك هذا كله وننتقل إلى العالم الإسلامي:

إن الفكر الإسلامي، المهتدي بكتاب الله، المستنير بنور النبوة، لم يتعرض لتلك الاختلالات التي تعرض لها الفكر الأوربي، وفي قضيتنا بالذات، التي نتناولها هنا بالبحث، لم يعتقد المفكرون المسلمون أن كل شيء على الإطلاق ثابت، ولا أن كل شيء على الإطلاق متغير، إنما اعتقدوا دائما أن هناك ثوابت وهناك متغيرات، وخاصة في حياة الإنسان.

وما قضية الاجتهاد في الشريعة إلا تجسيد واقعي لهذا الاعتقاد.

---

[٤٨] جاء في البروتوكول الرابع من "بروتوكولات حكماء صهيون": (نحن رتبنا نجاح دارون ونيتشة، وإن أثر فكرهما في عقائد الأمميين واضح لنا بكل تأكيد).

[٤٩] المعروف باسم "التفسير المادي للتاريخ".

[٥٠] إميل دور كليم: عالم اجتماع يهودي، ١٨٥٨/١٩١٧ م، ومن اكبر المؤثرين في الدراسات المعاصرة في علم الاجتماع، وينقل عنه – مع الأسف – "علماء" الاجتماع عندنا بلا تحفظ.

[٥١] أي أ شياء لها صفة الثبات.

[٥٢] انظر دور كايم، "مقدمة في علم الاجتماع"، ترجمة الدكتور محمود قاسم، إصدار إدارة الترجمة بوزارة التعليم العالي، القاهرة ط ٢، ص١٧٣. وجاء في هذا الكتاب أيضاً ص٥٩ – ٦٠: (إن النظر إلى القيم الأخلاقية على أنها قيم ثابتة هو نظرة غير علمية على الإطلاق).

فأمور الحياة على الدوام تتغير، ويجتهد العلماء فيما لم يرد فيه نص، ولكن اجتهادهم مقيد دائما بضوابط ثابتة، وهي ما يطلقون عليه "مقاصد الشريعة".

وقبل أن نتعرض لقضية الشريعة، وقضية الاجتهاد، نسأل: ما الثابت وما المتغير في الكيان الإنساني وفي الحياة البشرية؟

هل صحيح أن الإنسان ليس له كيان ثابت ولا فطرة، إنما هو مجرد انعكاس للحياة المادية المحيطة به، وأنه من ثم قد تغير تغيرا جذريا منذ عاش على الأرض إلى اليوم، وأن كل طور مادي مرّ به قد شكل جوهره على صورة مختلفة تماما عما كان عليه في الطور السابق، وأن إنسان "العصر الصناعي" هو في النهاية كائن مختلف تمام الاختلاف عن الإنسان الزراعي، فضلا عن الإنسان الرعوي، فضلا عن سكان الكهوف؟

يقول "رنيه دوبو" في كتاب "إنسانية الإنسان": (عاش رجل "كرو ماغنون" [Cro-Magnon] في أكثر أنحاء أوربا قبل حوالي ثلاثين ألف سنة، قبل قيام الزراعة وحياة القرية بفترة طويلة، ومع أنه كان صيادا بصورة رئيسية كان – على ما يظهر – مشابها لنا جسما وعقلا، فأدواته وأسلحته تناسب حجم أيدينا الآن، وفنه في كهوفه يثير مشاعرنا، والعناية التي كان يوليها لدفن موتاه تكشف أنه شاركنا بشكل ما بالاهتمام بنهاية الإنسان وآخرته، وكل أثر مدون من آثار إنسان ما قبل التاريخ يوفر شواهد أخرى للفكرة القائلة أن الخواص الأساسية للجنس البشري لم تتغير منذ العصر الحجري)[٥٣].

ولننظر نحن ماذا تغير في حياة الإنسان...

كان الإنسان يعيش في الكهوف، فبنى الأكواخ، ثم بنى المنازل والقصور... وقد يبني غدا مساكن في الكواكب الأخرى أو في مركبات الفضاء!

وكان الإنسان يكتسي بأوراق الشجر والريش، فصنع الملابس من النسيج اليدوي، ثم صنعها من النسيج الآلي، وتفنن في صنعها فجعل منها "مودات"، وجعل لها تقاليد...

وكان يأكل الطعام نيئا قبل أن يكتشف النار، فصار يطهوه، ثم تفنن في صنعه، واتخذ له أدوات، وجعل له تقاليد...

---

[٥٣] "رينيه دوبو"، "إنسانية الإنسان"، ترجمة د. نبيل صبحي الطويل، مؤسسة الرسالة بيروت ط ١، ١٩٧٩، ص٧١.

وكانت الحياة تعتمد على الصيد، ثم استأنس الإنسان حيوان الرعي فصارت الحياة رعوية، ثم صارت زراعية بعد اكتشاف الزراعة، ثم صناعية بعد اختراع الآلة، وقد تكون غدا على نحو جديد غير كل ما تقدم.

وكان الإنسان يسير على قدميه إذا أراد الانتقال من مكان إلى مكان، أو يضم بعض الأخشاب بعضها إلى بعض فيعبر عليها الماء، ثم استخدم دواب الحمل والسفن الشراعية، ثم اخترع السيارة والباخرة، ثم ركب الطائرة والصاروخ.

وكان الإنسان فردا في أسرة، فصار فردا في قبيلة، فصار فردا في مجتمع يتألف من عدة قبائل، فصار فردا في أمة، فصار فردا في مجتمع دولي متباعد الأطراف منعزل بعضه عن بعض، فصار فردا في مجتمع يوصف بأنه "مجتمع إنساني!"[٥٤] تقاربت أطرافه بفعل تقدم وسائل الاتصال فأصبح شبيها بالقرية الواحدة!

نعم... تغيرت كل "صور" حياته... فما الذي تغير في كيانه من الداخل؟

هل تغير حبه للبقاء؟ وحبه للامتداد عن طريق النسل؟ وحبه للبناء والتعمير والإنشاء والتغيير؟ وحبه لتصنيع الخامات وتحسين الأدوات وتجميل الحياة؟ وحبه للبروز وإثبات الذات؟ وحبه للتملك[٥٥]؟ وحبه لذاته وحبه في الوقت نفسه للاجتماع مع الآخرين؟

هل تغيرت أطماعه؟ هل تغيرت أمانيه؟

باختصار؛ هل تغيرت "نوازعه الفطرية"؟

وهل تغير قبل ذلك كله، ومع ذلك كله، أن الإنسان – في جميع أحواله وأطواره وعصوره – أحد اثنين بينهما فارق "جوهري" في التصور وفي السلوك؛ إما كافر وإما مؤمن، إما متبع لمنهج الله وإما متبع لمنهج الشيطان، {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ}، {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلَّا الْمُصَلِّينَ}.

---

[٥٤] هذا المجتمع الذي يُسمى "المجتمع الإنساني!" هو الذي حدثت فيه أبشع أشكال القتل الجماعي، وأبشع ألوان العدوان، والذي يعيش بعضه في الترف المهلك وبعضه الآخر في الفقر المهلك. بعضه يلقي الأقوات في البحار والأنهار أو يحرقها لكي لا تنخفض أ سعارها في السوق العالمية، وبعضه لا يجد لقمة الخبز التي تحفظه من الهلاك!

[٥٥] كانت للشيوعية دعوى عريضة في أن حب التملك ليس نزعة فطرية، إنما هو نزعة شريرة اكتسبها الإنسان في أثناء تطوره المادي بعد اكتشاف الزراعة واستمرت معه في عهود الرق والإقطاع والرأسمالية، حتى جاءت الشيوعية فردته عنها وشفته من آثارها! وقد تهاوت الشيوعية أخيراً وتهاوت معها دعاواها!

هل تغير شيء حقيقي في أعماق الإنسان من الداخل حين تغيرت صور حياته على مدار التاريخ؟

إن الفارق الجوهري في الحقيقة ليس بين الإنسان الرعوي، والإنسان الزراعي، والإنسان الصناعي، والإنسان الذري! إنما هو بين الرعوي المؤمن والرعوى الكافر، والزرعي المؤمن والزرعي الكافر، والصناعي المؤمن والصناعي الكافر، والذري المؤمن والذري الكافر! أما الفوارق الجزئية – أو الظاهرية – بين الرعوي والزراعي والصناعي، فهي كما قلنا فوارق في الصورة وليست في داخل الكيان.

*　　*　　*

هل معنى ذلك ألا نأبه إطلاقا لتغير الصورة ما دام الجوهر لم يتغير؟

لا أحد يقول ذلك! فإن القول بذلك معناه إلغاء "التاريخ"؛ معناه إلغاء كل الجهد الذي بذله الإنسان في عمارة الأرض، معناه إلغاء دور "الخلافة" التي خلق من أجلها الإنسان، والتي تشمل – فيما تشمل – عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}، {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}، {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ}، {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ}.

ومن خلال حركة الإنسان في الأرض، واحتكاكه بالكون المادي، ومحاولة تسخير طاقاته... تتغير الحياة جيلا بعد جيل، وعصرا بعد عصر، فإن ألغينا من اعتبارنا هذا التغير في الصورة، فإننا نلغي معه هدفا رئيسيا من أهداف الوجود البشري، وتختل بين أيدينا المعايير، وكيف نصنع إذن في هذه القضية، التي لا نستطيع فيها إهمال الثوابت ولا إهمال المتغيرات؟

لقد كان خطأ الفكر الكنسي هو التركيز على الثابت وحده، وإهمال المتغيرات وعدم إعطائها أي اعتبار.

وكان خطأ الفكر "التطوري" المنبثق عن الداروينية بصفة خاصة، هو التركيز على المتغير وحده، وإهمال القيم الثابتة وعدم إعطائها أي اعتبار، والصواب ألا نهمل هذه ولا تلك، لأن كلا منهما له آثاره الواضحة في حياة الإنسان.

ولكن السؤال الذي يحدد القضية – وهو مفتاحها كذلك –؛ هو من الذي يحكم الآخر؟ المتغير يحكم الثابت؟ أم الثابت يحكم المتغير؟! الجوهر يحكم الصورة، أم الصورة تحكم الجوهر؟

إن قلنا إن المتغير يحكم الثابت – كم يقول أصحاب الفكر التطوري – فقد ضاع منا المحور الذي تدور حوله الصورة... ومن ثم تفقد الصورة معيارها الذي يضبط حركتها، ثم تفقد معناها في نهاية المطاف!

أما إذا قلنا إن الثابت يحكم المتغير فلن يضيع منا شيء، لا الثابت ولا المتغير! إنما فقط تنضبط حركة التغير، فلا تخرج عن مسارها الصحيح.

وهذا هو الحق الذي خلقت به السموات والأرض... وخلق به الإنسان: {وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ}.

وهذا هو الذي نزلت به الشريعة الإسلامية لتحكم الحياة البشرية إلى آخر الزمان!

* * *

ليس المجال هنا أن نتكلم عن مزايا الشريعة الإسلامية في عمومها، وعن شمولها للحياة من جميع أطرافها في توازن وتكامل واتساق، فلهذا مجال آخر، إنما نحن معنيون هنا بنقطة واحدة معينة هي قضية "التطور" في صور الحياة "وثبات" الشريعة، وقضية؛ كيف يتأتى للشريعة التي نزلت قبل أربعة عشر قرنا أن تواكب ما جدّ في حياة الناس من تغيرات.

ولا يفوتنا قبل أن نناقش القضية أن نعرض لأحد الجوانب العقدية في القضية كثيرا ما يغفله الناس في البحث وهو يستحق التنويه.

إن الذين يتساءلون هذا التساؤل هم في الحقيقة – بوعي منهم أو بغير وعي – ينكرون صفة من صفات الله على الأقل – إن لم يكونوا منكرين لأكثر من صفة في واقع الأمر – تلك هي صفة العلم، فكأنهم يتصورون أن الله لم يكن يعلم حين أنزل هذه الشريعة أن اموراً ستجدّ في حياة الناس تختلف عن الأوضاع التي كانوا عليها يوم نزلت هذه الشريعة! كما أنهم ينفون في الواقع صفة الحكمة، إذ يتصورون أن الله أنزل شريعة لا يمكن تطبيقها إلا في حيّز معين من الزمن ثم ألزم الناس بها إلى يوم القيامة! والله عليم حكيم كما وصف نفسه سبحانه وتعالى، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

والآن نعود إلى التعرف على الأداة التي جعل الله بها هذه الشريعة صالحة للتطبيق إلى يوم القيامة، وجعلها تتسع لتستوعب كل ما يجدّ في حياة الناس على هذه الأرض.

نقول بادئ ذي بدء إن هناك أمورا ثابتة في حياة الناس يجب أن تظل ثابتة، وقد ثبتتها هذه الشريعة ومنعت إحداث أي تغيير فيها، لأن أي تغيير فيها تنتج عنه اختلالات في حياة البشرية، وقد سبق في علم الله العليم الحكيم أن الثبات هو الأمر الواجب في تلك الأمور، فأنزل أمره المحكم بعدم التغيير.

والسبب في ثبات هذه الأمور، وفي وجوب تثبيت الأحكام الخاصة بها، أنها متعلقة بحقائق ثابتة لا تقبل التغيير، وإن غُيِّرَتْ تفسد الأمور.

أول هذه الأمور؛ هو وجوب عبادة الله وحده بلا شريك.

وبينما وضع التطوريون هذه القضية على الخط المتغير، وزعموا – كما سبق أن أشرنا – أن البشرية مرت في ثلاثة أطوار: السحر والدين والعلم، وأنه كما أن السحر أخلى مكانه للدين، فكذلك الدين قد أخلى – ويجب أن يخلي – مكانه للعلم!

بينما يقول التطوريون ذلك فإن الله يقول على سبيل الإلزام الدائم: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً}، {إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}، {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ}.

وغني عن البيان أن هذه قضية ثابتة لأنها قضية الألوهية وحقها على العباد.

والله سبحانه وتعالى دائم لا يتغير، وكون العباد هم من خلقه حقيقة دائمة لا تتغير، فأصبح من مقتضى ذلك أمر ثابت هو وجوب عبادة العباد لربهم وخالقهم: {أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ}، {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}.

وإنما احتاج التطوريون لكي يزحزحوا هذه الحقيقة عن ثباتها ويضعوها على الخط المتغير، أن يكذبوا كذبة "علمية" ضخمة، ولم يجيئوا عليها بدليل واحد، هي كذبة "الخلق الذاتي" دون إله! وكذبة أخرى لا تقلّ عنها إيغالا في الخرافة هي كذبة الطبيعة الخالقة، التي "تخلق كل شيء ولا حدّ لقدرتها على الخلق"[٥٦]!

[٥٦] راجع كلمة دارون من قبل.

والقضية الثانية الثابتة – المنبثقة من القضية الأولى والمترتبة عليها – هي لزوم الحكم بما أنزل الله: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}[٥٧].

وقد كانت حجة التطوريين – أو إحدى حججهم – في نبذ الشريعة الربانية واستبدال حكم البشر بها، أن الإنسان قد شبَّ عن الطوق ولم يعد في حاجة إلى وصاية الله!

ولا يستطيع الإنسان أن يمنع نفسه من العجب من ذلك الإنسان الذي شب عن الطوق ولم يعد في حاجة إلى وصاية الله، وهو يتخبط كل يوم من ضلالة إلى ضلالة، ويعيش بعضه في ضلالة الفردية الجانحة التي تفكك المجموع وبعضه في ضلالة الجماعية الجانحة التي تسحق كيان الفرد!

بعضه في الملكية الفردية "الحرة!" التي لا تضبطها قيود، فتؤدي ببضعة ألوف من الأفراد أن يستعبدوا الملايين، وبعضه في الملكية الفردية الملغاة، التي تحول جموع الناس عبيداً للدولة، فيتحكم بضعة ألوف من الأفراد في حياة الملايين!

ألا إنها لسخرية عظمى... شبوب الإنسان عن الطوق واستغناؤه عن وصاية الله! {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى}.

* * *

وإذا كانت الشريعة ملزمة من حيث المبدأ[٥٨]، فإن في داخل هذه الشريعة أحكاما ثابتة لا تقبل التغيير، وأحكاما عامة ثابتة في ذاتها، ولكنها تقبل أن تدخل تحتها متغيرات.

ومن بين الثوابت التي لا تقبل التغيير ولايدخل تحتها متغيرات، أحكام العبادات كلها، والحدود، وعلاقات الجنسين – بما في ذلك علاقات الأسرة: الزواج والطلاق والمواريث... إلخ –

فأما أحكام العبادات فثباتها ناشئ من أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يقرر للإنسان كيف يعبد ربه، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد علم الناس كل ما يجب عليهم وما يجوز لهم أن يتعبدوا الله به.

[٥٧] تحدثنا في المبحث الأول عن قضية ارتباط الشريعة بالعقيدة.

[٥٨] تحدثنا في المبحث الثاني عن قضية الإلزام بشيء من التفصيل.

ثم قال عليه الصلاة والسلام: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد)[٥٩].

فتحددت العبادات بما حدد الله وما بيّن رسوله صلى الله عليه وسلم، ولم يعد لأحد أن يزيد فيها من عنده أو ينقص منها على هواه.

وأما الحدود فسنتكلم في المبحث التالي عن علاقتها بـ "الحضارة" وعلاقة الحضارة بها، إذ أنها من منابع الشبهات عند "المثقفين" على الطريقة الغربية.

ولكنا نذكر هنا أن أوربا "المتطورة" قد وضعت قضية الجريمة والعقاب على الخط المتغير لأكثر من سبب في آن واحد.

فمن بين الأسباب أن أوربا النصرانية لم تطبق هذه الحدود أبدا بوصفها شريعة منزلة، رغم ورود أمثالها في التوراة، والتزامهم – نظريا – بشريعة التوراة إلا ما أحل المسيح لهم مما كان محرما عليهم: {وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}، {وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْأِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْأِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}.

ولكن وضع النصارى المستضعف في ظل اضطهاد الإمبراطورية الرومانية لهم في القرون الثلاثة الأولى لم يمكنهم من تطبيق الشريعة الربانية فصارت "أخلاقا" تلتزم تعبداً لله من جهة المتقين، ولكنها ليست أحاكما تنفذها الدولة، فلما قويت النصرانية بعد اعتناق قسطنطين لها – أو تظاهره باعتناقها لأسباب سياسية – وفرضها دينا رسميا على الإمبراطورية الرومانية عام ٣٢٥م لم يَسْعَ البابوات في أوج سلطتهم إلى فرض الشريعة الربانية على الملوك والأباطرة، بل سعوا إلى إخضاع هؤلاء لنفوذهم الشخصي، وبقى القانون الروماني هو المطبق على أساس مبدإ غريب على الدين – كل دين – هو مبدأ: "أدَّ ما لقيصر لقيصر وما لله لله"! فأصبحت الألوهية شقين؛ شق لله في شعائر العبادة وتقوى القلوب، وشق لقيصر في حكم الواقع الذي يعيشه الناس!

{وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ}.

ولذلك ظلت أوربا – حتى أيام تدينها – تنظر إلى الشريعة على أنها أخلاقيات، ولا تنظر إليها على انها أحكام واجبة التنفيذ، فلما بدأت نهضتها المعادية للدين أو المفارقة له،

[٥٩] أخرجه الشيخان.

خف وزن الشريعة في حسها بصورة متزايدة... حتى إذا جاءت لوثة التطور زال من حسهم نهائيا كل توقير للشريعة، وتجرءوا على نقدها والتنديد بها على أنها من التراث "الرجعي" الذي ينبغي للتطور أن يزيله ويستبدل به شيئا "حديثا"، يعتبر من أجل حداثته قبل كل شيء آخر، سواءً كان مستحقا للاعتبار في ذاته أم غير مستحق! وكان الشيء "الحديث" الذي ابتليت به أوربا هو "علم التحليل النفسي"[٦٠] – أو في الحقيقة "علم تبرير الجريمة"، والنظر إلى المجرم على أنه مجنى عليه، لا يستحق أن يوقع عليه العقاب –

ولا نناقش هنا مفهوم الغرب عن الجريمة والعقاب[٦١]، فنحن معنيون في هذا المبحث – كما أسلفنا – بنقطة واحدة معينة هي قضية التطور، فنقول فقط إن أوربا حين وضعت قضية الجريمة والعقاب على الخط المتغير، وأفتت لنفسها بوجوب تغيير أحكام الشريعة الربانية في هذا الشأن، واتخاذ قوانين بشرية بدلا منها[٦٢]، قد ابتليت – كما يعرف الناس جميعا – بطوفان من الجريمة آخذ في التزايد باستمرار، وعلى الرغم من كل الاحتياطات التي تقوم بها دول الغرب، وعلى الرغم من كل الدراسات: التربوية والنفسية والاجتماعية والقانونية والإعلامية... إلخ، التي تقوم بها تلك الدول في فترات متقاربة لا تنقطع!

وما يشهد به الواقع فهو غني عن البيان!

ومن أبلغ ما يشهد به الواقع – مما تذكره تقريراتهم هم أنفسهم – ما حدث منذ سنوات، وأشارت إليه صحف العالم كله في حينه، من أن محطة القوى الكهربائية في نيويورك تعطلت ذات مرة لمدة خمس وعشرين ساعة متوالية، أي نهارا وليلة كاملين – بزيادة ساعة كذلك! – فارتكب في نيويورك في تلك الليلة الواحدة ما يوازي جرائم سنة كاملة بسبب الظلام!

* * *

وأما علاقات الجنسين فقد ثبتت الشريعة أحكامها لأنها قائمة على "ثوابث" لا تتغير: الرجل من جهة، والمرأة من جهة، وعلاقة التجاذب بين الجنسين من جهة ثالثة، ما الذي يمكن أن يتغير في هذه الثوابت؟!

---

[٦٠] مؤسسه هو فرويد، وهو يهودي. ومن أخطر ما يؤدي إليه التحليل النفسي على طريقة فرويد إسقاط مسئولية الإنسان عن أعماله على أساس أنها ردود فعل قهرية لحالات مرضية وعقد نفسية، وهو مبدأ مدمر للأخلاق، كما هو ظاهر.

[٦١] سنتعرض لهذه القضية بشيء من التفصيل في المبحث القادم.

[٦٢] لم تطبق الشريعة تطبيقاً واقعياً في أوربا – كما أسلفنا – ولكن كان لها مع ذلك توقير "أدبي" في حس الناس.

إنه ما دام الرجل رجلا والمرأة امرأة، ومادامت العلاقة بينهما هي علاقة التجاذب، فلا بد أن يحدث اللقاء، وليس لهذا اللقاء إلا إحدى صورتين؛ صورة منضبطة، تجعل لهذا اللقاء هدفا أو أهدافا محددة، وضوابط معينة، وتبعات "إنسانية" مترتبة عليها، وإما صورة غير منضبطة بهدف ولا تبعات.

وقد كانت علاقات الجنسين في الغرب منضبطة بضوابط الدين الثابتة حين كانت أوربا متمسكة بآداب دينها[٦٣]، فلما خرجت على دينها وتمردت عليه، رأت أن تنقل هذه العلاقات من الخط الثابت إلى الخط المتغير... فماذا كانت النتيجة.

النتيجة هي ما نراه اليوم في الغرب – وفي العالم الذي سيطر عليه الغرب – من الفوضى الجنسية والتحلل الخلقي، وجرائم الجنس المتفشية رغم ذلك التحلل، أو – بالأحرى – بسبب ذلك التحلل.

وما يشهد به الواقع لا يحتاج إلى بيان!

إن الإنسان – منذ خلقه الله – "إنسان"! وليس حيوانا متطورا كما زعمت الداروينية القديمة بغير دليل علمي[٦٤]، وللإنسان أهداف في حياته غير أهداف الحيوان، وسلوك كذلك غير سلوك الحيوان، {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}.

وعلاقات الجنس – ككل شيء في حياة الإنسان – ذات غاية "إنسانية"، وضوابط كذلك "إنسانية"، {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً}.

أما نزوة الجسد فهي من خصائص الحيوان، وأما السكن والسكينة والمودة والرحمة فهي من خصائص الإنسان.

وقد لزم – في علم الله العليم الحكيم – لكي تتحول نزوة الجسد الحيوانية إلى سكن وسكينة ومودة ورحمة أن تكون لها ضوابط إنسانية، وأن تترتب عليها تبعات، فحدد لذلك الحدود، وقال سبحانه: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا}، وفي داخل تلك الحدود، التي حددها الله بعلمه وحكمته، تتحقق سكينة الجسد وسكينة النفس، ويوجد المحضن الآمن

[٦٣] كانت أوربا في الواقع متزمتة في شأن هذه العلاقات بتأثير الرهبانية التي ابتدعها النصارى دون تكليف من الله: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ} [الحديد: من الآية ٢٧].

[٦٤] سبقت الإشارة إلى أن الداروينية الحديثة رغم اعتقادها بمبدأ التطور تقرر تفرد الإنسان.

الذي يتربى فيه النشء الجديد ليعمر وجه الأرض، وتتحقق سكينة المجتمع بتضييق مدى الجريمة، وتأمين الناس على أعراضهم وأرواحهم، كما تتحقق النظافة اللائقة بالإنسان.

وثبتت الشريعة المنزلة هذه الحدود، لأنها هي السبيل الوحيد لتحقيق هذه الأهداف، ولأنها كلما خولفت – خلال التاريخ – حدثت الفوضى التي نرى نموذجا منها اليوم، وحدثت الاختلالات.

وكما ثبتت الشريعة طريقة اللقاء بين الجنسين، فحددته في الزواج، دون المسافحة ولا اتخاذ الأخدان[٦٥]: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}.

أقول: كما ثبتت الشريعة طريقة اللقاء بين الجنسين، حددت كذلك كل ما يترتب على هذه العلاقة، وما يقع في داخلها بأحكام ثابتة غير قابلة للتغيير، لأنها ترتكز على ثوابت غير قابلة للتغيير.

ومما تجادل فيه الجاهلية المعاصرة – بتأثير "قضية المرأة" وطلبها المساواة الكاملة مع الرجل في كل شيء – قضية القوامة وقضية الميراث، وتنادي الجاهلية المعاصرة بوضع كلتا القضيتين على الخط المتغير بحجة التطور الذي شمل كل شيء في الحياة!

فأما في قضية القوامة، فإن المرأة المسترجلة التي سعت الجاهلية الحديثة إلى تنشئتها لأمر يراد، قد تعلمت وعملت، وشغلت الوظائف العامة، ولم تستطع مع ذلك أن تغير طبيعتها العاطفية التي خلقها الله بها لتوفي مطالب الطفولة، والله أعلم وأحكم من أن يخلق جنسين متماثلين، ثم يفرق بينهما في الوظيفة وفي التكوين الجسدي والحيوي! إنما اقتضت حكمته سبحانه حين حدد لكل من الجنسين وظيفة، ان يخص كلا منهما بخصائص حيوية ونفسية تلائم وظيفته، ولا عبرة بوجود امرأة بين ملايين النساء تسمى "المرأة الحديدية" أو الفضية أو النحاسية! فالأحكام تلحق بالعموم لا بالحالات الشاذة التي لا يقاس عليها[٦٦]! وقضية القوامة فرع عن قضية التكوين الجسدي والحيوي والنفسي، لا تتغير حتى تفسد الفطرة، وحين تفسد الفطرة يعم الفساد في الأرض.

[٦٥] المسافحة؛ هي البغاء، واتخاذ الأخدان لون خاص من البغاء هو ما تتخذه الجاهلية المعاصرة باسم "الصداقة" [Boy Friend] و [Girl Friend].

[٦٦] راجع "أليكسيس كاريل"، "الإنسان ذلك المجهول"، ترجمة شفيق أسعد، بيروت، ط٣، خاصة، ص١٠٨ حيث يقول: (إن كل خلية في جسم المرأة تحمل طابع جنسها).

وأما قضية الميراث فهي ناشئة كذلك عن توزيع الوظائف وتوزيع التكاليف.

الرجل هو المكلف بالإنفاق – إلزاما لا تطوعا – والمرأة لا تكلف بالإنفاق، فإذا تطوعت بذلك من عند نفسها فليس ذلك تكليفا ترتب عليه تبعات.

والفريق الذي كلفه الله بالإنفاق أعطاه نصيبين، أما الفريق الذي لم يكلف بالإنفاق فقد منحه الله نصيباً واحداً لذات نفسه، ثم قال تعالى: {وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً}.

ومن فضل الله على العباد أنه يدخل الناس الجنة لا على قدر أموالهم، ولا قدر وظائفهم في الحياة الدنيا، وإنما على قدر ما يتعبدون بالطاعات والإخبات.

* * *

تلك أمور ثبتت الشريعة أحكامها ولم تجعلها قابلة للتغيير، ولا يدخل تحتها كذلك متغيرات، لأن التغيير فيها يحدث من المفاسد ما نرى بعض آثاره في واقع العالم المعاصر، مما هو مشهود ومشهور.

ولكن هناك أمورا أخرى – كثيرة – يعلم الله أنها تتغير، ولا يريد الله لها أن تجمد على حالة معينة، هي حالتها وقت نزول هذه الشريعة المباركة.

ولم يكن غائبا عن علم الله وحكمته – كما يتصور المجادلون بوعي منهم أو بغير وعي – أن حركة الإنسان في الأرض، واحتكاكه الدائم بالكون المادي، وسعيه إلى تسخير طاقاته، وسعيه إلى تصنيع خاماته، وتحسين أدواته، وتجميل وسائل حياته، سيقوده إلى إحداث تغييرات مستمرة في صور حياته؛ السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

والله هو الذي خلق الإنسان، وأودع فيه ما أودع من طاقات ونزعات، وهيأه بذلك لعمارة الأرض والقيام بدور الخلافة فيها: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}.

ويريد الله للإنسان أن تكون حياته مثمرة نامية مباركة: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}، {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ}.

وحيث سبق ذلك في علم الله، وفي حكمته، وسبق في علمه كذلك وحكمته أنه سينزل رسالته الخاتمة على خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ولن يرسل رسولا بعده، وسيكلف البشر بإقامة تلك الشريعة – بعد كمالها[٦٧] – إلى آخر الزمان، فقد اقتضت حكمته سبحانه أن ينزل في تلك الأمور المتغيرة أصولا ثابتة تتسع للصور المتغيرة وتضبط حركتها في الوقت ذاته.

تتغير الصور السياسية، بتغير حجم الدولة وطريقة إدارتها، وتغير وضع الفرد من كونه فردا في قبيلة إلى كونه فردا في أمة، وتغير مدى استقلاله بفرديته وممارسة حياتها من خلالها، واعتبارات أخرى جمة متشابكة، فتتغير بذلك صورة الحكم وتنظيماته ولكن لا تتغير الأصول الثابتة التي تحكم "السياسة الشرعية"؛ تحكيم شريعة الله، والبيعة، والشورى، والسمع والطاعة من الرعية لولي الأمر في حدود طاعة ولي الأمر لله ورسوله، والنصح من الرعية لولي الأمر عملا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما تحدده الآيات القرآنية والأحاديث النبوية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}.

(الدين النصيحة)، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[٦٨].

(إنه كان لكل نبي كان قبلي حواريون يهتدون بهديه ويأتمرون بأمره، ثم إنه تخلف من بعد ذلك خلوف، يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)[٦٩].

(إنه يكون عليكم أمراء فتعرفون منهم وتنكرون، فمن أنكر فقد سلم ومن كره فقد برئ ولكن من رضى وتابع)[٧٠]، إلخ... إلخ[٧١]...

أما شكل الحكم... وأما طريقة الشورى... وأما توزيع المسئوليات بين الحاكم ونوابه ومعاونيه... وأما طريقة تولية الحاكم وطريقة تنحيته إذا استوجب الأمر تنحيته، فكلها أمور قابلة للتغيير، بما يتفق مع أحوال كل أمة وكل عصر.

[٦٧] قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً} [سورة المائدة: ٣].

[٦٨] أخرجه مسلم.

[٦٩] أخرجه مسلم.

[٧٠] أخرجه مسلم.

[٧١] تراجع كتب السياسة الشرعية، ككتاب الماوردي وغيره.

* * *

وتتغير الصورة الاقتصادية بتغير أدوات الإنتاج وتقدم العلوم والتكنولوجيا، ومدى تسخير الإنسان لطاقات الكون المادى بما يفتح الله له من أبواب المعرفة... واعتبارات أخرى كثيرة متشابكة، ولكن لا تتغير الأصول الثابتة التي تحكم سياسة المال؛ أن المال مال الله، والبشر مستخلفون فيه، ومأمورون أن ينفذوا فيه شرع الله، وأنه لا بد من نظافة المال في المأخذ فلا غصب ولا سرقة ولا غش ولا ربا ولا احتكار ولا أكل لمال الأجير... ولا بد من نظافته في الإنفاق فلا ينفق في سرف ولا ترف ولا مخيلة ولا في محرم... ولا بد من أداء زكاته، ثم الإنفاق منه في سبيل الله لا تكلف نفس إلا وسعها.

أما شكل العمليات الاقتصادية ومواضع المشاركين فيها؛ فهي عرضة للتغير الدائم بحسب الأحوال.

* * *

وتتغير الصورة الاجتماعية، فيكون المجتمع قبليا، وحدته هي القبيلة، ورئيس القبيلة هو نائبها وممثلها وولي أمرها الذي تأتمر بأمره، ويمارس الفرد وجوده من خلال القبيلة، أو يكون المجتمع أمة ذابت فيها الكيانات القبلية فأصبح الفرد يمارس وجوده فردا ويمثل نفسه بنفسه... ويقوم البيت بالتربية والتوجيه مستقلا أو تشاركه مؤسسات اخرى كالمدرسة ووسائل الإعلام، أو تقوم المؤسسات بالدور الأكبر وتظل للبيت روابطه العاطفية... ويكون البيت أسرة كبيرة يعيش فيها الوالدان والأبناء، والجدود والأحفاد، أو أسرة صغيرة تقتصر على الوالدين والأبناء... إلخ... إلخ ولكن تبقى الأصول الثابتة للعلاقات الاجتماعية: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ}، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً}، {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}، {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}.

* * *

وحين تتغير الصورة: السياسية أو الإقتصادية أو الاجتماعية، تحتاج إلى أحكام جديدة مستمدة من الشريعة، والوسيلة الشرعية لذلك هي الاجتهاد فيما ليس فيه نص، وهي المزية

الكبرى لهذه الشريعة، التي تجعلها صالحة لاستيعاب ما يجدّ في حياة الناس، وربطه بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة لا يند عنها شيء.

والاجتهاد مأذون به بل مأمور به: {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}.

سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذا رضي الله عنه وهو يوليه على اليمن: (كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟)، قال: أقضي بكتاب الله، قال: (فإن لم تجد في كتاب الله؟)، قال: فبسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، قال: (فإن لم تجد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟)، قال: اجتهد رأيي، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدره موافقا ومؤيداً لما يقول[٧٢].

وللاجتهاد شروطه المعروفة من علم بالفقه وعلم بالأصول وعلم بالآلة — اللغة – وبصر بأحوال الناس وقدرة على الاستنباط واستقامة في الخلق وامانة في الدين، ولكنه أولا وأخيرا أداة ربانية زود الله بها هذه الأمة لتظل تحت مظلة الشريعة لا تخرج عنها ولا تستبدل بها حكم الجاهلية، ولتتحرك الحركة المنضبطة، فلا تجمد في مكانها حيث تقتضي حركة الحياة أن تتقدم، ولا تنفلت في حركتها فتخرج عن مقاصد الشريعة، فيحدث الفساد في الارض.

وحصيلة الاجتهاد الدائمة: صور متغيرة تدور حول محاور ثابتة. سنة الله في الخلق كله وفي حياة الإنسان، فتلتقي الشريعة المنزلة في نسق واحد مع الكون والحياة والإنسان، {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}.

المبحث الرابع
شبهة تعارض أحكام الشريعة مع مقتضيات الحضارة الحديثة ووجوب الأخذ بمعايير الحضارة دون الشريعة

ألمحنا في المبحث الثالث إلى بعض جوانب هذه القضية: قضية تعارض أحكام الشريعة مع مقتضيات الحضارة الحديثة، فهي في صميمها فرع عن قضية التطور التي تفترض أن كل جديد هو بالضرورة خير من كل قديم، لمجرد أن هذا جديد وذاك قديم، لا لمزية موضوعية في هذا ليست موجودة في ذاك! وإذ كانت الحضارة القائمة اليوم "حديثة" فهي بهذا الاعتبار خير من كل قديم سبق... ولو كان منزلاً من عند الله!

---

[٧٢] رواه أبو داود.

وقد نشأ هذا الوهم في أوربا من مجموعة من العوامل بعضها حق وكثير منها باطل، ولكنه وَهْمٌ ركب الناس وهم فارّون من شبح الكنيسة المزعج؛ {كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ}! ولو لم يكونوا في حالة فرار، ولو لم يكن قسورة وراءهم، فلربما كانوا يتعقلون في هذا الأمر – وفي أمور كثيرة غيره – فلا يتصرفون بلا وعي كما يتصرفون الآن، ثم يبثون أوهامهم – بسيطرتهم العسكرية والاقتصادية والسياسية والعلمية – على بقية الأرض.

حقيقة إن العصر الذي ساد فيه الدين الكنسي المحرف كان عهد ظلام في أوربا، كما يصفون هم بحق عصورهم الوسطى المظلمة، وإن العصر الذي تلا ذلك، وانحسر فيه سلطان الكنيسة وسلطان ذلك الدين كان عهد نور وتفتح، وعهد تقدم في كل ميادين الحياة، وعهد قوة وسيطرة بالنسبة لأوربا خاصة.

وقد فهمت أوربا من ذلك أن "الدين" هو سبب التأخر، وأن الحضارة التي لا تقوم على الدين هي سرُّ الفلاح في الدنيا، وهي التي تحوز للإنسان كل أسباب القوة والتقدم والرقي.

وقد نحاول أن نلتمس الأعذار لأوربا في طغيان الكنيسة الجائر الذي مارسته على الناس في كل مجالات الحياة، فكان منه طغيان روحي وطغيان مالي وطغيان سياسي وطغيان عقلي وطغيان علمي... وكان يحصى على الناس حتى خطرات نفوسهم التي لا يبوحون بها، ويعذبهم على يد محاكم التفتيش عند أول شبهة تقوم حول ولائهم للكنيسة ومعتقداتها... وقد نحاول أن نلتمس لها الأعذار مرة أخرى في أن النموذج الإسلامي – الذي كان قمينا أن يصلح الحياة في أوربا لو اعتنقت الإسلام – قد شوهت الكنيسة صورته في نفوس الأوربيين ببشاعة حين خشيت من تأثير التوغل الإسلامي في شرق أوربا، كما خشيت من تأثير "الغزو الفكري" الإسلامي، العائد من المبتعثين الأوربيين إلى بلاد الإسلام ومعاهد العلم الإسلامية.

يقول المؤرخ الإنجليزي "ويلز" في كتابه "معالم تاريخ الإنسانية": (ولو تهيأ لرجل ذي بصيرة نفاذة أن ينظر إلى العالم في مفتتح القرن السادس عشر، فلعله كان يستنتج أنه لن تمضي إلا بضع أجيال قليلة لا يلبث بعدها العالم أجمع أن يصبح مغوليا – وربما أصبح إسلاميا)![٧٣].

ولكن أوربا على أي حال قد أخطأت في تصورها من جانبين في آن واحد، الجانب الأول هو تصورها للدين الكنسي المحرف على أنه هو "الدين"، وأن الخيار الوحيد أمامها هو إما البقاء في ذلك الدين مع الظلم والظلام والتأخر، وإما الحياة بلا دين – وذلك بعد أن

[٧٣] "ويلز"، "معالم تاريخ الإنسانية"، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، ط٣ ١٩٦٧ م، ج٣/ص٩٦٦.

عجزت حركات "الإصلاح الديني" عن إحداث تغيير جوهري في جوهر المشكلة – والجانب الآخر هو تصورها – بعد ما خرجت من الدين – أن التمكين في الأرض هو الغاية القصوى التي خلق الإنسان من أجلها، وأنه إذا حققها بأي وسيلة فقد فاز! وذلك تصور جاهلي من جميع أبعاده، فلا التمكين في الأرض – بأية وسيلة – هو غاية الوجود البشري، ولا تحقيقه – وحده – علامة على "التفوق" بالمعيار الإنساني اللائق بالإنسان!

إن الله يعطي التمكين في الدنيا للكافر وللمؤمن معاً إذا توفرت من جانبه أسباب التمكين: {كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً}، {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ}.

بل إن الله – إذا شاء سبحانه – قد يعطي التمكين في الدنيا للكافر كلما أوغل في الكفر، استدراجا له ليزداد كفرا وليحمل أوزاره كاملة يوم القيامة! {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ...}، {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ}.

فليست العبرة بالتمكين في ذاته، ولا في انفتاح أبواب كل شيء للإنسان في الحياة الدنيا وحدها، إنما خلق الإنسان ليقوم بدور الخلافة الراشدة في الأرض، وليعمر الأرض بمقتضى المنهج الرباني، وهذا هو تمكين الرضا الذي يترتب عليه الفلاح في الدنيا، وحسن المآل في الآخرة، كما تحفه البركة والطمأنينة، ولا يتحقق إلا بالإيمان وتقوى الله: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}، {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}، {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.

أما التمكين في الأرض – وحده – وعلى غير المنهج الرباني، فعلاوة على أنه موقوت بفترة معينة وسنّة معينة، فهو مبتوت عن الآخرة: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

وفضلا عن ذلك فلا بركة في حياتهم ولا طمأنينة... فهم "يتمتعون"... ولكن... {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ}.

كل هذه المعاني كانت غائبة عن الناس في أوربا وهم ينطلقون {كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ}، فكلها معان لا يدركها الإنسان الجاهلي، الذي قال أقرانه من قبل: {نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}، {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}.

* * *

ثم وقعت أوربا في وَهْمٍ جاهلي آخر...

ذلك أنها حين خرجت من أسر الكنيسة الجائر أخذت تتعلم... وكان العلم في ذاته صراعا هائلا مع الكنيسة التي حرّقت العلماء وعذبتهم لأنهم قالوا بكروية الأرض، وخالفوا بعلمهم "معلومات" الكنيسة، أو بالأحرى خرافاتها التي كانت تحرص عليها جهالة منها، وتبثها باسم الدين[٧٤]، ونشأ من هذا الصراع افتراق طريق العلم عن طريق الدين بغير موجب "موضوعي"، ووقوف العلم والدين في حس الأوربيين موقف التضاد والتقابل، فمن أراد العلم أهمل الدين – أو عاداه – ومن أراد الدين أهمل العلم، وانفصلت بذلك في نفس الغربي نزعتان توأمتان: نزعة العبادة لله، وهي فطرة: {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}، ونزعة المعرفة وهي كذلك فطرة أودعها الله في الإنسان ليقوم بدور الخلافة في الأرض: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}، {عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}، وأفسد هذا الصراع طمأنينة النفس إلى خالقها وهي تتدبر آيات الله في الكون، وتتعرف على خواص الكائنات لتحقق التسخير الرباني لما في السموات والأرض ليكون في متناول الإنسان: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ}.

تقدم العلم في أوربا بما تعلمته في مدارس المسلمين اولا، وكان أبرز ما تعلمته هو المنهج التجريبي في البحث العلمي، ثم تقدم ثانيا بما بذل الأوربيون من جهد جبار في ميدان التجربة والبحث، مع الجلد والمثابرة وعبقرية التنظيم... ولكنه في كل خطواته كان معاديا للدين بسبب حماقة الكنيسة الكبرى في معاداة العلم والعلماء.

[٧٤] كان من أهم أسباب وقوف الكنيسة في وجه العلم؛ أنه كان علماً إسلامياً في مصدره، وكان يهدد بتحول أوربا إلى الإسلام كما أشرنا من قبل، وهذا السبب تخفيه المراجع الأوربية وهي تتحدث عن الصراع بين الكنيسة والعلم، لأنها لا تحب أن تعترف بفضل الإسلام والمسلمين.

وألقى العلم ثماره الجنية على الساحة الأوربية فتقدمت العمارة المادية للأرض تقدما هائلا، وارتقت أحوال الناس المادية وانتعشت، واكتسبت أوربا قوة مادية فتحت بها الأرض وسيطرت عليها، فعاد عليها ذلك بمزيد من الثروة ومزيد من الرفاهية والتقدم المادي.

وكان هذا الوضع "الحديث" أفضل ولا شك من أوضاع أوربا في عهود "الظلام".

ولما كان هذا كله قد تم بعد إقصاء أوربا لدينها والانفلات منه، فقد وَقَرَ في وهمها مرة أخرى أن "الدين" هو المعوق عن الحضارة، وأن الحضارة يجب أن تكون معادية للدين لكي يقطف الناس ثمارها ويستمتعوا بها، وأن المعيار الذي يعيّر به الرقي البشري هو "الحضارة" وليس "الدين".

وهنا وَهْمٌ مزدوج وقعت فيه أوربا وهي تفرّ من غول الكنيسة بلا وعي ولا انضباط.

أحد طرفي الوهم تصورها أن "الدين" من حيث هو، كان هو المعوق عن الحضارة. بينما كان المعوق عن الحضارة في الحقيقة هو دين الكنيسة المحرف، ثم سلوك الكنيسة بذلك الدين المحرف الذي ابتدعته من عندها ولم يتنزل من عند الله بهذه الصورة المحرفة.

والطرف الآخر من الوهم هو تصور أوربا أن الحياة بلا دين أفضل في جميع الأحوال وفي جميع المجالات من الحياة بالدين...

وسنسلم بأن حياة أوربا في ظل دينها كانت سيئة، وكان لا بد لها من التمرد على ذلك الدين لكي تحسن أحوالها السيئة وتخرج من الظلام الدامس الذي كان يكتنف قرونها الوسطى المظلمة.

ولكنا لن نسلم بأن الحياة بلا دين أفضل لأوربا – وللبشرية كافة – من الحياة بالدين الصحيح الذي ينبغي للبشرية كلها أن تدين به.

فقد تقدم العلم، نعم، وتقدمت الحياة المادية في جميع مجالاتها، نعم، ولكن انظر نظرة فاحصة إلى "الخلاصة" من هذا كله...

وانظر إلى "الإنسان" هل ارتقى في مجموعه أم انتكس انتكاسة ربما لم ينتكسها في تاريخه الطويل كله...

لقد سيطر الإنسان على "البيئة" – كما يقول "جوليان هكسلي" في كتابه "الإنسان في العالم الحديث" الذي سبقت الإشارة إليه في المبحث الثالث – وأخذ – في ظنه –

يسيطر على الفضاء[٧٥]، ولكنه لم يستطع أن يسيطر على شهواته، بل فتح لها المجال بكل عنفوانها، سواء في ذلك شهوة الجنس، أو شهوة "الاستمتاع" عن أي طريق حلال أو حرام، أو شهوة السيطرة والتسلط والطغيان...

إن الاستعمار بكل جرائمه وبشاعاته هو ثمرة طبيعية لقيام حضارة جاهلية بلا دين.

إنه ليس انحرافا عارضا كان يمكن لهذه الحضارة أن تتجنبه لتحسين سمعتها كما يتوهم بعض المفتونين بهذه الحضارة، إنه نتاج أصيل لها، فحيثما ملك الإنسان القوة ولم يكن يؤمن بالله ورسله ورسالاته فهذا ديدنه خلال التاريخ كله... يطغى، لأن السلطة تُطْغِي إن لم تردعها وتضبطها مخافة الله وتقواه، ولقد بررت أوربا استعباد الأمم الضعيفة وامتصاص دمائها على نفس النحو الذي كانت الإمبراطورية الرومانية تبرر لنفسها ذلك الامر... تشابهت قلوبهم! والسبب دائما واحد... قوة لا يصحبها دين.

وضع إن شئت مقارنة سريعة بين حركة التوسع الإسلامي في الأرض، وحركة التوسع الروماني في القديم والتوسع الغربي في الحديث ليتبين لك الفرق.

التوسع الإسلامي كان يحرر المستعبدين في الأرض كما قال ربعي بن عامر في عبارته البليغة البارعة التي رد فيها على رستم قائد الفرس حين سأله: ما الذي جاء بكم إلى بلادنا؟ قال: (إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة)، بينما التوسع الروماني في القديم والتوسع الغربي في الحديث يستعبد الأحرار، {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ}.

وإن الفساد الخلقي، وما تبعه من انتشار الخمر والمخدرات والشذوذ والجريمة، هو ثمرة طبيعية لقيام حضارة جاهلية بلا دين، إنه ليس انحرافا عارضا كان يمكن لهذه الحضارة أن تتجنبه لوقاية نفسها من الدمار، كما يتوهم المعجبين بها، الخائفين عليها! إنما هو نتاج أصيل لها، فحيثما وجدت فرص متاحة للمتاع دون ضابط من دين ينظم ذلك المتاع، كانت النتيجة واحدة... الإغراق في الشهوات، ثم الانحراف.

وإن ألوان الجنون التي طغت اليوم على المجتمع الغربي: جنون الجنس، وجنون الأزياء، وجنون الزينة، وجنون العري، وجنون السينما، وجنون التليفزيون، وجنون الفيديو، وجنون الكرة، وغيرها من ألوان الجنون المخزية، كلها ثمرة لقيام حضارة بلا دين... إن كانت قد جاءت متأخرة عن بداية قيام هذه الحضارة، فتلك سنّة طبيعية من سنن الله؛ التدرج في كل شيء، لا شيء يأتي فجأة في أحوال الناس في الأرض – إلا العقاب الصاعق من عند الله

[٧٥] مما ينفي هذا الوهم؛ فزع الناس من اتساع فتحة الأوزون في الغلاف الجوي وما قد يترتب على ذلك من نتائج مدمرة لحياة الإنسان على الأرض.

حين يقدره سبحانه – إنما يتم كل شيء بالتدريج، ولكن على ذات الخط الذي يريده الناس لأنفسهم من البداية، فإن أرادوا الاستقامة على طريق الله يسّر الله لهم الطريق، وإن أرادوا الانحراف زادهم مما يريدون!

ولا أحد يقول إن هذه الحضارة سوداء كلها بلا بياض! وما كانت هناك قط جاهلية من جاهليات التاريخ سوداء كلها بلا بياض!

نعم! فيها نقط بيضاء كثيرة متناثرة هنا وهناك، فيها التقدم العلمي، فيها التقدم التكنولوجي الذي أزاح عن كاهل الإنسان أعباء كثيرة وحمّلها للآلة، فيها الجلد على العمل والصبر والمثابرة، فيها عبقرية التنظيم، فيها الروح العلمية والعملية في تناول المشكلات، فيها "أخلاقيات" نفعية، نعم، ولكنها تجعل التعامل اليومي بين الناس بعضهم وبعض مريحا سهلا خاليا من التعقيد...

كلها نقط بيضاء في هذه الجاهلية، ولكنها لا ترفع عنها صفة الجاهلية لأنها لا تعرف الله حق معرفته، ولا تعبده حق عبادته[٧٦].

ثم إنها لن تنقذها من الدمار – في موعده المقدر عند الله – لأنه سنّة حتمية من سنن الله، تصيب الذين يصرون على تنكب طريقه... إلا أن يغيّروا ما بأنفسهم فيغير الله لهم: {إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ}، {وَكَأَيِّنْ مَنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ}، {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

ومن جهة أخرى؛ فلم يكن من الحتم على هذه الحضارة أن تنبذ الدين لكي تتوصل إلى القوة والتقدم العلمي والتكنولوجي، فقد كان هذا كله ممكنا – كما أمكن للمسلمين من قبل – لو أن أوربا اعتنقت الإسلام.

* * *

ونخلص من ذلك كله إلى نتائج واضحة:

أولا: أن ظروفا معينة في أوربا هي التي جعلتها تنبذ الدين، وتقيم عداء بين الدين والحضارة وبين الدين والعلم، وبين الدين والسياسة، وبين الدين والاقتصاد... إلخ.

[٧٦] هذا هو المعنى القرآني للجاهلية كما وردت في مواضع متعددة في القرآن الكريم؛ الجهل بحقيقة الألوهية، وعدم اتباع ما أنزل الله.

ثانيا: أن أوربا توهمت أن دينها هو "الدين"... ومن ثم توهمت أن "الدين" هو الذي ينبغي أن يُنْبَذَ، وأن الحضارة ينبغي أن تقام بلا دين.

ثالثا: أن أوربا حين انفلتت من دينها الفاسد، وانفلتت في الوقت ذاته من الضوابط التي تحفظ للإنسان إنسانيته، واتبعت أهواءها، ثم أقامت على هذا الهوى "حضارة" أعجبتها لأنها تساير أهواءها ثم جعلتها هي الأصل الذي يقاس عليه كل شيء، ثم قاست الدين على هذا الأصل المعتمد عندها فوجدته مخالفا للأصل المعتمد، فنبذته، وجعلت نبذه مقياساً للتقدم والحضارة والرقي![٧٧].

رابعا: أن هذا كله خلل في التصور وخلل في السلوك أنشأته ظروف معينة في أوربا، وليس قانوناً من قوانين الوجود البشري يسري على كل البشر بالضرورة!

* * *

ثم ننتقل بالحديث إلى الإسلام:

إن مفهوم "الحضارة" في الإسلام يختلف اختلافا بيّنا عن المفهوم الغربي، وإن التقى معه إلتقاء عارضاً في ضرورة السعي إلى عمارة الأرض.

الحضارة في المفهوم الإسلامي؛ هي النشاط الذي يقوم به الإنسان في شتى مجالات حياته ليحقق غاية وجوده.

ومن ثم ينبغي أن نعلم بادئ ذي بدء غاية الوجود البشري لنحدد بعد ذلك كنه "الحضارة" التي تناسب تلك الغاية وتحققها.

يقول شاعر جاهلي معاصر[٧٨]: (جئت لا أعلم من أين، ولكني أتيت! ولقد أبصرت قدامي طريقا فمشيت!)

---

[٧٧] يكرر "ألكسيس كاريل" في كتابه "الإنسان ذلك المجهول" – سبقت الإشارة إليه –؛ أن الإنسان المعاصر قد صنع لنفسه حضارة خاطئة بدافع شهوته، ولكنها لا تناسب تكوينه، ولذلك فهي في طريقها للانهيار.

[٧٨] هو الشاعر إيليا أبو ماضي.

وهكذا انتهت حياته إلى "العبثية" لأنه جهل غاية وجوده، وهو يمثل في الحقيقة أزمة الجاهلية المعاصرة، التي تقود تلك الجاهلية إلى الجنون كلما أوغلت في الطريق.

والإسلام يحدد تحديداً واضحاً غاية الوجود البشري، فيضع أمام الإنسان كل شيء في مكانه الصحيح: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}، {إِنَّا خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً}، {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}، {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}، {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}، {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ}، {وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}.

ونفهم من مجموع هذه الآيات وأمثالها؛ أن الإنسان خلق ليعبد الله وأنه خلق ليكون خليفة في الأرض، وأنه خلق للابتلاء، وأنه خلق لقدر من المتاع يناله في الحياة الدنيا، وأنه خلق ليعمر الأرض بالسعي في مناكبها والأكل من رزق الله، وبالسعي إلى تسخير طاقات السموات والأرض...

ولا تعارض بين هذه الأهداف جميعا، فكلها في النهاية تلتقي في مفهوم العبادة في الإسلام.

لقد خلق الله الإنسان ليكون هو المهيمن المسيطر المنشئ الباني المعمر في الأرض، وعلم الله أن هذه المهمة تستلزم أن تكون في كيان الإنسان مجموعة من الدوافع القوية تدفعه للقيام بهذا النشاط، حتى لا تقعد به العقبات عن القيام بمهمته؛ لا البحار ولا الأنهار ولا الجبال ولا البرد ولا الحر ولا الأمراض... ولكن الله يعلم كذلك أن هذه الدوافع – أو سَمِّها الشهوات – مع لزومها له، لا تصلح أن يستجيب لها الإنسان إلى آخر المدى لأنها عندئذ تدمره بدلا من أن تعينه على أداء مهمته، فرسم للاستمتاع بها حدوداً معينة وقال: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا}، و {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا}[٧٩]، وجعل موضع الابتلاء هو هذا: هل يستجيب الإنسان للأمر الرباني، فيلتزم في تناوله للمتاع بالحدود التي حددها الله؟ أم يتجاوز الحدود رغبة منه في مزيد من المتاع؟ وجعل ذلك كله هو "العبادة" التي خلقه من أجلها على سبيل الحصر، المعبر عنه في الآية الكريمة بالنفي والاستثناء: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}، وهما أقوى أدوات الحصر في اللغة العربية، ثم قدر سبحانه أنه من استجاب لهذه العبادة – بمعناها الواسع الشامل – فإن له الجنة خالدا فيها، ومن اعرض وعصى واتبع هواه فإن له جهنم خالدا فيها.

[٧٩] يلاحظ أنه حين تكون الشهوة عنيفة يرد قوله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا} [سورة البقرة: ١٨٧]، لأن القرب لا يؤمن معه الزلل أما الدوافع التي يؤمن الزلل فيها فيجيء في شأنها؛ {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا} [سورة البقرة: ٢٢٩].

تلك هي قصة الإنسان من مبدئه إلى منتهاه... وهي التي تحدد له كل شيء في حياته منذ يبلغ سن التكليف إلى أن يلقى الله.

وهي التي تحدد له كذلك مفهوم "الحضارة" التي ينبغي أن يسعى إلى إقامتها.

إنها ليست مقصورة على العمارة المادية للأرض – وإن كانت تشملها – إنما هي على وجه التحديد؛ عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني، وعندئذ فقط تصبح محققة لغاية الوجود البشري، لأنها عندئذ تدخل في مفهوم العبادة الواسع الذي تشمله الآية الكريمة: {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ...}.

والمنهج الرباني هو هذا الدين! {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ}، {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}.

ومن ثم فالدين هو الحضارة... والحضارة هي الإسلام!

وهذا هو الذي فهمه المسلمون وهم يقيمون أروع حضارة في تاريخ البشرية... الحضارة التي حررت "الإنسان" من العبودية لغير الله، من الجهل والخرافة، من الأنانية والتسلط، من العبودية للهوى والشهوات، من الظلم في جميع أشكاله؛ السياسية والإقتصادية والاجتماعية... ظلم النفس وظلم الآخرين، والتي حررت المرأة وحررت العبيد، ورفعت الناس إلى المستوى اللائق بالإنسان.

وهي فوق ذلك التي حوت العلم النافع، وظلت تعلمه للبشرية عدة قرون، سواء في مجال العلوم الشرعية أو العلوم الدنيوية التي برعت فيها الأمة الإسلامية يوم كانت تتمسك بدين الله.

* * *

المعيار إذن هو الدين! هو الإسلام! لأنه هو الذي يحدد غاية الوجود البشري، ويحدد من ثم شكل النشاط الذي يحقق تلك الغاية على أحسن وجه... وتلك هي الحضارة الحقة اللائقة بالإنسان...

ما بال بعض "المسلمين" إذن يزوون وجوههم وقلوبهم وأفكارهم عن الحضارة الحقة والمعيار الحق، ليتخذوا المعيار المختل الذي ابتليت به أوربا لظروفها الخاصة هناك؟!

لكي نحسن الظن بهم نقول إن واقع المسلمين اليوم، السيئ غاية السوء، هو الذي لوى أعناق هؤلاء عن المفهوم الصحيح للحضارة، فاتخذوا بدلا منه معيار أوربا، الذي يصور الدين معوقاً عن الحضارة، وينادي بنبذ الدين لكي تتقدم الحياة.

ولكنا مهما أحسنّا الظن بهم لا نستطيع أن نعتذر عنهم!

وكيف نعتذر عن قوم يسمعون كلام الله فيزورون عنه، ويقولون: سنتخذ المعيار الغربي بدلا من كلام الله؟!

واقع المسلمين اليوم سيئ لا بسبب تمسكهم بالدين، بل بسبب بعدهم عن الدين، ولهذا فهم غير متحضرين، ويوم كانوا يعرفون دينهم المعرفة الحقة، ويتمسكون به على بصيرة كانوا هم الأمة المتحضرة في الأرض، وسبيلهم إلى الحضارة اليوم أن يعودوا إلى دينهم، فيجدوا فيه كل مقومات الحضارة، وأولها معرفة الله وعبادته، واتباع ما أنزل الله.

إن التخلف العلمي والمادي والحربي والسياسي والاقتصادي والأخلاقي، الذي يشكل في مجموعه "التخلف الحضاري" ليس هو الداء الاصيل في هذه الأمة، كما يتصور الذين يفهمون أن نقل حضارة الغرب إلى الشرق هو الذي سيخلص الأمة من تخلفها، وينشئها نشاة جديدة!

إن هذا التخلف بكل فروعه وأشكاله إنما هو نتيجة لتخلف العقيدة في نفوس المسلمين. لأن هذه العقيدة هي التي منحت المسلمين التقدم العلمي والمادي والحربي والسياسي والاقتصادي والأخلاقي... يوم كانوا مؤمنين حقا بهذا الدين.

فالذين يتخذون واقع المسلمين السيئ ذريعة لتنحية الشريعة الإسلامية، هم فوق هزيمتهم الروحية والفكرية أمام الغرب، جاهلون بحقائق التاريخ، بالإضافة إلى جهلهم بالسنن الربانية التي تحكم حياة البشر على الأرض.

* * *

يقال فيما يقال إن الحدود في الشريعة الإسلامية مظهر "غير حضاري"! إن كان يناسب البيئة البدوية التي نزل فيها القرآن، فهو لا يناسب البيئة المتحضرة التي يعيش فيها سكان العالم الحديث! ما أفظع أن تقطع يد السارق! ما أفظع أن يرجم الزاني! إنما السجن هو العقوبة المهذبة اللائقة بالحضارة! أو إن شئتم... فلا عقاب!

ويقال كذلك فيما يقال: إن الشريعة الإسلامية تظلم المرأة وتأبى عليها ما منحته إياها الحضارة الحديثة من الحريات والحقوق!

وما بنا أن نعيد كلاما قلناه من قبل ونحن نستعرض قضية التطور.

إنما نقول إن هذه الشريعة هي التشريع الوحيد في الأرض، الذي أخذ موضوع الجريمة والعقاب من كل زواياه في آن واحد.

إن الإسلام لا يبدأ بتقرير العقوبة ولا بتوقيع العقوبة.

إنما يبدأ بوقاية المجتمع من الجريمة، بالإحاطة بمنابعها قبل أن تنبع.

وأول إحاطة هي بالقلب البشري ذاته، منبع الخير في الإنسان إذا صلح، ومنبع الشر فيه إن فسد: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[٨٠].

ويوجه الإسلام لهذا القلب جهده الأول والأكبر، لينقيه ويصفيه ويربطه بالله جل شأنه من خيطي الخوف والرجاء: {وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ}.

والاسماء والصفات التي وردت في كتاب الله، وفي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، نزلت لتربية هذا القلب وربطه بالله، فهي تحيط بالقلب البشري في جميع أحواله وجميع تصرفاته، إن تَطَلَّعَ إلى شيء فكل شيء بيد الله، وإن خاف من شيء فكل شيء بيد الله، هو الرزاق، هو المهيمن، هو المدبر، هو الذي بيده مقاليد كل شيء، وهو الغفور الرحيم، وهو الجبار المتكبر، وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده. منه المنشأ وإليه المصير.

وحين يتربى القلب على هذه الصورة فهو لا يتجه أصلا إلى الجريمة، لأنه يخاف مقام ربه فينهى النفس عن الهوى، ولأنه يشعر بالقناعة بما بين يديه من فضل الله، فإذا رغب في الزيادة فعند الله المزيد.

ولا نقول إن التربية الإسلامية تحول الناس إلى ملائكة، وتنزع نوازع الشر من نفوسهم فلا يعود في قلوبهم غل ولا حقد ولا غضب ولا سخيمة... فذلك لا يتحقق إلا في الجنة: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}.

[٨٠] متفق عليه.

إنما نقول على يقين: إن المجتمع الإسلامي – حيثما وجد مجتمع إسلامي حق – هو أقل مجتمعات الأرض جريمة، وإن العامل الأول في ذلك هو هذه التربية التي تربط القلب بالله، يحبه ويخشاه.

والإسلام مع ذلك نظام واقعي، لا يفترض في الناس المناعة والجو موبوء بالجراثيم، إنما يكافح الجرثومة في ذات الوقت الذي يربي فيه مناعة القلوب.

فأما السرقة فجرثومتها الجوع والفقر، ويسعى النظام الإسلامي إلى مكافحة الجوع والفقر بتشريعاته وتنظيماته وتوجيهاته جميعا حتى لا يوجد في الأرض جائع يضطر إلى السرقة بسبب الجوع.

وأما الزنا فجرثومته الفتنة والإثارة والتبرج والخلاعة، والفراغ من القيم الجادة التي تستوعب مشاعر الناس وطاقاتهم، والترف والترهل... والإسلام يمنع ذلك كله ويحاربه، وفي ذات الوقت يدعو إلى التعجيل بالإحصان – بالزواج – ويدعو إلى تيسيره، لكي تأخذ الأمور منطلقها الطبيعي ولا يحتاج أحد إلى الجريمة.

وكذلك في بقية الحدود... يسعى النظام الإسلامي إلى الإحاطة بمنبع الجريمة قبل أن يلوث الجو بالجراثيم.

ومع ذلك ينظر الإسلام في كل حالة مفردة؛ هل ارتكب الجريمة مرتكبها وهو معذور؟! فإن قامت الشبهة فإن الإسلام يدرأ الحد بالشبهة، ولا يوقع الحد إلا عند التيقن من أن مرتكب الجريمة غير معذور.

وهذا هو تصرف عمر رضي الله عنه حين أوقف حد السرقة في عام الرمادة، عام الجوع، وحين جيء له بغلمان سرقوا ناقة فلم يقم عليهم الحد، بل ألزم سيدهم أن يعوض صاحب الناقة بضعف ثمنها عقوبة له على تجويع غلمانه، وقال له: (والله لولا أني أعلم أنكم تستعملونهم فتجيعونهم، حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه لحل له، لقطعت أيديهم، فإذ لم أفعل فلأغرمنك غرامة توجعك)! ثم التفت إلى صاحب الناقة فقال: (بكم أريدت منك ناقتك؟)، قال: بأربعمائة، فقال لابن حاطب – صاحب الغلمان –: (اذهب فأعطه ثمانمائة)![٨١].

---

[٨١] من رواية الطبراني.

والحد في ذاته أداة للوقاية من الجريمة، فإن شدته الملحوظة قد قصد بها تخويف من تحدثه نفسه بارتكاب الجريمة – وهو غير معذور – فيفكر مرات ومرات قبل أن يقدم على التنفيذ.

ثم إن الإسلام حين يوقع الحد على مرتكب الجريمة – غير المعذور – لا ينبذه من أجل جريمته، إنما الحد كفارة للتطهير: (... فمن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة)[٨٢].

لذلك يرد له الإسلام صفحته بيضاء نقية، فلا يلمز ولا يغمز ولا يغتاب، ولا توصد في وجهه الأبواب حتى لا يعود إلى الجريمة من جديد...

أي تشريع في الأرض كلها – قديمها وحديثها – أحاط بموضوع الجريمة والعقاب هذه الإحاطة، فشمله من كل جوانبه، ووضع له التشريع الأمثل كما فعلت شريعة الله؟ ومع ذلك يعدلون؟! {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}.

أيهما خير؟ مجتمع نظيف لا تحدث فيه الجريمة إلا شذوذا يستنكر، أم مجتمع يعج بالجريمة، تعمل كل الأجهزة على منعها أو حصرها فتتزايد كل يوم؟!

وأيهما هو المجتمع المتحضر؟ المجتمع الذي ينادي فيه رئيس الدولة شعبه فيقول: "لا يخرج أحدكم وحده بعد الغروب، ولا يحملن في جيبه أكثر من ثلاثين دولاراً لكي لا يتعرض للمجرمين وقطاع الطريق"[٨٣]، أم ذلك المجتمع الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه)[٨٤].

* * *

وحديث المرأة والحضارة حديث يطول[٨٥]، ولكنا نختصره في كلمات.

[٨٢] أخرجه البخاري.

[٨٣] من نداء وجهه الرئيس "ريجان"، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، إلى شعبه وقت توليته، ونشرته الصحف في حينه.

[٨٤] أخرجه البخاري.

[٨٥] انظر إن شئت "مذاهب فكرية معاصرة ، فصل؛ "دور اليهود".

لقد كانت المرأة مهينة حقًّا في المجتمع الغربي، لا تعامل على أنها إنسانة، وتحرم من كثير من الحقوق، ويتجادل بعض الفلاسفة في شأنها؛ هل لها روح أم ليس لها روح؟ وإن كان لها روح فهل هي روح إنسانية أم حيوانية؟ وإن كانت روحاً إنسانية فهل هي من نفس مستوى روح الرجل أم أقل!

وكانت للرهبانية التي ابتدعتها الكنيسة أثرها في نظرة المجتمع إلى المرأة على أنها أحبولة الشيطان، التي ينبغي أن يحجر عليها كل الحجر، لتضييق منافذ الشيطان، ويُزْرَى بها كل زراية لكي ينخنس الشيطان في داخلها، ولا يخرج إلى قلوب الرجال في الطريق.

وثارت المرأة – أو أثيرت لأمر يراد – وتحررت – أو تحللت – من جميع القيود... فخرجت الفتنة هائجة في الطريق، كما هو مشهود في الغرب. مما لا يحتاج إلى بيان.

ولكن عبرة الحديث أن المرأة في الغرب قد بدأت تتنبه أخيرا إلى أن الرجل قد أطلقها ليعبث بها وبكرامتها وإنسانيتها، ويستغلها تجارة رابحة عن طريق إثارة الغرائز وتهييج الشهوات. كما أطلقها ليتخفف من شطر من تبعاته وتكاليفه، ويحمّلها للمرأة "المتحررة"! فبدأت بعض "العاقلات" يدعون المرأة إلى الرجوع إلى مملكتها التي هجرتها – إلى بيتها – وإلى مهمتها الكبرى التي أهملتها وهي شاردة تبحث عن وسائل البهجة والمتاع، وهي رعاية النشء الذي تشرد وضاع حين فقد البيت المستقر، الأم المتفرغة... كما تبين ذلك من خلال لقاءات قام بها التليفزيون الفرنسي على مدى عام كامل مع فريق من النساء العاملات، اللواتي يحتل معظمهن مراكز مرموقة في المجتمع، فرد أكثرهن بأن أمنيتهن الكبرى أن يعدن إلى البيت ويتركن ما حُمِّلْنَه من أعباء! كما قامت مظاهرة نسائية في أمريكا احتجاجا على عرض ملابس المرأة الداخلية في واجهات المحلات على أجساد "المانيكان" لأن فيه إهانة للمرأة وتدنيساً لكرامتها.

والإسلام هو الذي أعطى المرأة كرامتها الإنسانية، وحررها من ظلم الجاهلية وصانها في الوقت ذاته من التبذل الذي سيقت إليه المرأة الغربية ثمنا للحصول على حريتها، وما تزال المرأة في بعض بلاد الغرب "المتحضر" لا تستطيع أن تتعامل تعاملاً مباشراً في شئون من شئون الحياة أعطاها الإسلام حق التعامل المباشر فيها، ولا تزال تفقد اسمها حين تتزوج ويصبح اسمها "مدام فلان"! التي يقال إن أصلها التاريخي هو الملكية التامة وحرية التصرف[٨٦]!

[٨٦] تقول بعض المعاجم اللغوية الأوربية؛ إن الأصل في كلمة "مدام" [Madame] هو [My Domain]، أي ممتلكات الإنسان التي يملك السلطة الكاملة عليها! ولا نملك نحن إثبات هذا المعنى ولا نفيه، وإن كان واقع الحياة الأوربية في العصور الوسطى يظاهره!

أما الإسلام فيقرر مساواة الرجل والمرأة في الإنسانية، وفي الجزاء في الآخرة: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ}.

ولا ينظر الإسلام إلى المرأة المؤمنة على أنها شيطان، وإنما هي شريكة في بناء المجتمع على أسسه القويمة: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}.

والذي يريده "الحضاريون التطوريون" في الحقيقة ليس هو تحرير المرأة، ولا الحفاظ على كرامتها، إنما هو إشاعة الفاحشة في المجتمع، لينتهبوا من اللذات ما يشاءون بلا حاجز ولا رقيب، وأولئك هم الشياطين!: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ}.

أما ما يشيع في المجتمع المسلم اليوم من مظاهر جاهلية تجاه المرأة فعلاجه العودة إلى المنهج الرباني الصحيح، وليس علاجه الانفلات مع الحضاريين التطوريين، الذين يسعون في الأرض فسادا والله لا يحب الفساد.

المبحث الخامس
شبهة عدم إمكان تطبيق الشريعة بسبب وجود الأقليات غير المسلمة

معنى هذه الشبهة بعبارة صريحة أن الأقلية تملك منع الأغلبية من ممارسة دينها!

فمتى كانت هذه في التاريخ كله... وعلى أي أساس تقوم؟!

متى كان من حق أي أقلية في التاريخ البشري كله أن تتحكم في الأغلبية، وتقول لها لا تمارسي دينك الذي تؤمنين به لأن في ذلك عدوانا على كياننا، أو عدوانا على حقوقنا؟!

ولنأخذ حال الأقليات المسلمة في بلاد الأرض في واقعنا المعاصر.

إن أقلية واحدة من الأقليات المسلمة في الأرض لم تقم – بداهة – بمطالبة الأكثرية الحاكمة بالكف عن ممارسة دينها، مجاملة لوجودها بين ظهرانيها...

ولكنا نريد أن نفترض هذا المستحيل! فكيف يكون رد الفعل لدى الأكثريات الحاكمة في العالم، لو تقدمت أقلية مسلمة بمثل هذا الطلب العجيب؟!

إني أتصور رد الفعل الفوري في آسيا وأفريقيا مذابح للمسلمين تسيل فيها الدماء كالأنهار، وأتصور رد الفعل في العالم "الحرّ!" مظاهرات صاخبة تطالب بإخراج المسلمين من البلاد!

وليس هذا التصور خيالا بلا حقيقة.

ففي الهند تقوم المذابح بالفعل للمسلمين الهنود، لا لأنهم – معاذ الله – تقدموا بطلب جنوني مثل هذا الطلب، إنما فقط لأنهم مسلمون! فمجرد أنهم مسلمون يثير عليهم حفيظة الوثنيين الهنود عباد البقر، فيهجمون عليهم، فيقتلون من يقتلون منهم، ويحرقون عليهم دورهم، ثم ينصرفون آمنين لا ينالهم عقاب!

وفي الفلبين جاء النصارى فأخرجوا المسلمين من أرضهم الغنية، واضطروهم إلى أرض جدبة مجهدة، ثم لم يكفوا حتى هذه اللحظة عن مضايقتهم ليخرجوهم مما بقي في أيديهم من الأرض، وتُوَجَّه القوات النظامية لقتالهم بوصفهم "متمردين"... متمردين بدينهم! أي بكونهم مسلمين[٨٧]!

وفي العالم الشيوعي – في روسيا والصين – جرت المذابح الجماعية في أبشع صورها، وقتل الملايين من الناس جهرة لمجرد أنهم مسلمون، وسميت تلك المذابح الجماعية "حركات تطهير"!

أما إفريقيا فلا يقل حالها سوءا عن ذلك.

---

[٨٧] كانت الفلبين منذ قرون طويلة أرضاً إسلامية، ثم طمعت الصليبية في ضمها إليها، وعرض "ماجلان" على البابا أن يقود حملة تتولى ضم الفلبين إلى ملك النصارى، فعارض البابا في ذلك ثلاث مرات، لعدم ثقته بإمكان ذلك، لقوة شكيمة المسلمين وتمكنهم في الفلبين، فلما ألح "ماجلان"، وزعم قدرته على تنفيذ مقترحه وافقه البابا في المرة الرابعة، فصحب حملته الصليبية التي ندرس نحن لأبنائنا – بتأثير الغزو الفكري – أنها كانت رحلة علمية استكشافية، ونزل "ماجلان" على إحدى الجزر الفليبينية المسلمة وتجرأ فرفع على أرضها شارة الصليب، فقتله المسلمون، وندرس نحن لأبنائنا – بتأثير الغزو الفكري كذلك – أن "المتبربرين" في الفلبين قتلوه لأنهم لم يقدروا رحلته العلمية الاستكشافية!

ولنأخذ نموذجا من الحبشة:

يظن كثير من الناس أن المسلمين أقلية في الحبشة، وهذا الظن ذاته له دلالة! فلولا الخسف الذي يحيط بالمسلمين هناك، والذل الذي يرهقهم، ما توهم أحد أنهم أقلية، في حين أنهم يبلغون خمسة وستين في المائة من مجموع السكان – وذلك قبل ضم أريتريا إلى الحبشة وأغلبيتها الساحقة من المسلمين! – ثم سعت الحبشة التي يحكمها النصارى رغم أغلبيتها المسلمة، سعت إلى ضم أريتريا المسلمة لإذلال المسلمين، وإجلائهم عن دينهم وعقيدتهم، فقتلت منهم مئات الألوف، وما زالت تقتل، وشردت الملايين... لمجرد كونهم مسلمين!

وأما في الحبشة ذاتها ف "الأغلبية" المسلمة محرومة من حقوقها السياسية حرماناً كاملاً، فمن حقها أن تكون هي الحاكمة بحكم أنها هي الأغلبية، فلا تمكّن من ذلك، ثم لا يكون منها وزير في الحكم، ولا رجل في منصب حيوي، ولا يدرس لأبنائهم الإسلام في مدارس الدولة التي يشرف عليها النصارى، ولا يتاح لهم أن يفتحوا مدارس لتعليم أبنائهم القرآن والدين، إلا "الكتاتيب" التي تظل الدولة ترهقها بالضرائب حتى تغلقها، ويحرّم على الأحباش المسلمين تلقي المعونات المالية من الخارج للقيام بفتح المدارس الإسلامية لتعليم المسلمين وتثقيفهم ثقافة إسلامية.

كل ذلك وهم أغلبية... فكيف لو كانوا أقلية... وكيف لو نادوا – وهم أغلبية – بمنع الأقلية النصراينة الحاكمة من ممارسة دينها؟ كيف تكون المذابح هناك؟!

وكانت زنجبار دولة مسلمة في أفريقيا، فضاق النصارى بوجودهم، لمجرد كونهم مسلمين، فهجموا عليهم ذات يوم من الأيام السود، فذبحوا ثلث السكان ذبحاً، وضموا من بقى حياً – مع الهوان والذل – في دولة حكمها في يد النصارى، سميت "تنزانيا" بعد أن كان اسمها "تنجانيقا" إثباتا لذكرى اغتيال زنجبار، بإبقاء حرفين من اسمها في اسم الدولة الجديدة![88].

كما أن أفريقيا مملوءة بالدول ذوات الأغلبية المسلمة، التي يحكمها النصارى – وهم الأقلية – ظلما وعدوانا على مسمع من "العالم الحر!" بل بتحريض وسند من ذلك العالم "الحر!".

[88] التاء والنون في اسم الدولة الجديدة "تنزانيا"؛ يرمزان إلى تنجانيقا، والزاي والنون يرمزان إلى زنجبار، وبقية الأحرف وهي الياء والألف الأخيرتان؛ هما من دواعي "توليف" الاسم الجديد، ولكنهما مشتقان من أصل "تنجانيقا" ولا صلة لهما بزنجبار.

أما العالم الحر ذاته فاسمع عنه الأعاجيب!

تقوم في فرنسا اليوم دعوة متزايدة يتزعمها "لوبان" أحد المرشحين لتولي الحكم في فرنسا، تنادي بطرد المسلمين من فرنسا، وارتكبت تلك الحركة أعمالا وحشية، فألقت بخمسة من المسلمين من قطار "المترو" أحياء، أثناء سير القطار، فقتلوا على التو، وتهاجم مظاهراتهم المسلمين – والنساء المحجبات خاصة – في طرقات باريس، مدينة النور، وإحدى كبريات عواصم "العالم الحر"! هذا والمسلمون في فرنسا هم الأغلبية الثانية بعد النصارى، ويبلغ عددهم خمسة ملايين.

وفي بريطانيا تقوم الدولة بحماية الأفّاق الذي كتب كتاب "آيات شيطانية" يسب فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته وأهل بيته سبا مقذعا ليس فيه شيء من تهذيب "الفن" ولا أدب "العلم" ولا لياقة "الذوق"... وحين يحتج المسلمون على نشر الكتاب تقول لهم الدولة بعبارة صريحة: تلك قوانيننا "الديمقراطية" فمن لم تعجبه أحوالنا فليخرج من بلادنا... هذا والمسلمون هم الأغلبية بعد النصارى ولا يقل عددهم عن ثلاثة ملايين، وفيهم عدد غير قليل من البريطانيين الذين دخلوا – طواعية – في دين الإسلام.

كيف إذن لو قامت أقلية إسلامية تنادي بذلك المنكر، وهو منع الأكثرية الحاكمة من ممارسة دينها لوجود الأقلية المسلمة بين ظهرانيها؟!

* * *

إنها دعوى منكرة لا سابقة لها في التاريخ!

وقد ظلت الأقليات غير المسلمة تعيش في كنف الدولة المسلمة المطبقة لشريعة الله ثلاثة عشر قرناً كاملة، لا تشكو، ولا تفكر في الشكوى، ولا تجد مبررا للشكوى... حتى وصل المسلمون إلى حضيض ذلتهم، فبرزت تلك الدعوى إلى الوجود!

والأقليات غير المسلمة لا تضع الدعوى في صورتها الصريحة بطبيعة الحال – وهي منع الأكثرية المسلمة من ممارسة دينها – لأنها لن تجرؤ على ذلك في البلاد "الإسلامية" مهما وصل استضعاف المسلمين!

إنما ظاهر دعواهم هو تعطيل تطبيق الشريعة فقط، مع بقاء المسلمين مسلمين! يمارسون "دينهم" كما يشاءون!

ولعل الدعوى التي ناقشناها في المبحث الأول قد برزت حقيقتها الآن، وبرزت خلفيتها!

إنه لمثل هذا قيل للمسلمين؛ أنتم مسلمون ولو لم تطبقوا شريعة الله! فما دمتم تصلون وتصومون... إو ما دمتم تقولون "لا إله إلا الله" فأنتم مسلمون!

إنه لا إسلام بغير شريعة الله!

وقد ناقشنا هذه القضية في المبحث الأول بما أعتقد أنه يبين وجه الحق في القضية، ويكفي قوله تعالى: {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً}، وقوله تعالى: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ...}.

لا إسلام بغير شريعة الله!

وإن الدين الذي هو عقيدة فقط، أو عقيدة وشعائر تعبدية، دون شريعة تحكم تصرفات الناس في الأرض، لهو دين جاهلي مزيف لم يتنزل من عند الله...

وما من رسالة سماوية كانت عقيدة فقط، أو عقيدة وشعائر تعبدية، دون شريعة تحكم تصرفات الناس في الأرض، {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}.

فالرسالة التي حملها إلى مدين أخوهم شعيب هي عبادةُ الله وحده بما يتضمنه ذلك من عقيدة وشعائر تعبدية، وأمرٌ لهم ألا يتصرفوا في أموالهم حسب أهوائهم، بل يتقيدوا بشريعة الله المنزلة إليهم، وهذا الذي فهمه قوم شعيب واستنكروه منه لكفرهم وجاهليتهم فدمر الله عليهم، {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ}.

أي؛ أمن مقتضيات دينك الذي تدعونا إليه أن نترك عبادة آلهتنا التي ورثنا عبادتها عن آبائنا، وأن تقيد تصرفنا في أموالنا فلا نستطيع أن نتصرف فيها إلا بمقتضى التعاليم التي تحملها؟! ثم يقولون له في سخرية ظاهرة: من أين لك أيها الحليم الرشيد أن تقيدنا بهذه القيود؟!

وحين قالوا ذلك؛ أي رفضوا العقيدة والشريعة كانوا كفاراً ومشركين: {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ}.

ونجد في سورة الشعراء سجلاً لمجموعة متتابعة من أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم، كل نبي يأمر قومه أن يعبدوا الله ويطيعوا رسوله، ثم يذكر لهم رسولهم ما هم واقعون فيه من انحراف في تصرفاتهم الدنيوية، ويطلب منهم تصحيحها بما يناسب مقتضى إيمانهم بالله، أي بمقتضى الشريعة المنزلة إليهم من عند ربهم:

{كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ...}.

{كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ}.

{كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ}.

{كَذَّبَ أَصْحَابُ لْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ...}.

فإذا جئنا إلى الرسالات الثلاث الأخيرة نجد عنها حديثا مفصلا في كتاب الله: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْأِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْأِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ

يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}.

كلا! لا يوجد دين هو عقيدة فقط، أو عقيدة وشعائر تعبدية بلا شريعة!

وإنما جاء المفهوم الغربي "العلماني" للدين، على أنه علاقة خاصة بين العبد والرب، محلها القلب، ولا علاقة لها بواقع الحياة... جاء من مفهوم كنسي محرف، شعاره؛ "أدّ ما لقيصر لقيصر وما لله لله"، ومن واقع عانته النصرانية خلال قرونها الثلاثة الأولى، حين كانت مضطهدة مطاردة من قبل الإمبراطورية الرومانية الوثنية، فلم تتكمن من تطبيق شريعتها، واكتفت بالعقيدة والشعائر التعبدية – اضطراراً – واعتبرت ذلك هو "الدين"، وإن كانت لم تتجه إلى استكمال الدين حين صار للبابوية سلطان قاهر على الأباطرة والملوك، فظل دينها محرفا لا يمثل الدين السماوي المنزل، فلما جاءت العلمانية في العصر الحديث وجدت الطريق ممهداً، ولم تجد كبير عناء في فصل "الدين" عن "الدولة"، وتثبيت "الدين" على صورته الهزيلة التي آل إليها في الغرب، والذي قال الله فيمن يمارسه على هذا النحو: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}، {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}، وهي صفات ثلاث تلحق بكل من ينحي شريعة الله عن الحكم، ويحكم بشرائع الجاهلية.

أما الذين ينفذون بعض الشريعة ويعرضون عن سائرها فقد قال الله فيهم: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}.

وهذا هو الوضع الذي تريد الأقليات غير المسلمة أن تضع فيه المسلمين في كل الأرض، أو الوضع الذي ينادي به بعض أفراد الأمة الإسلامية ليضعوا المسلمين فيه، بحجة وجود الأقليات غير المسلمة في العالم الإسلامي!

أي هوان وصل إليه "المسلمون" حين تهاونوا في دين الله؟! حين قبلوا شعار العلمانية: الدين لله والوطن للجميع! بينما الله يقول: {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ...}، ويقول: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ}، والدين كله يعني العقيدة والشعيرة والشريعة كلها سواء!

* * *

ولقد عاشت الأقليات غير المسلمة كما أسلفنا في ظل الدولة الإسلامية المطبقة لشريعة الله ثلاثة عشر قرناً متوالية، لا تشكو، ولا تفكر أن تشكو، ولا تجد مبرراً للشكوى، لأنها تجد من التسامح الديني ما لا تجده أقلية أخرى في الأرض كلها في جميع التاريخ.

واقرأ إن شئت كتابا كاملا في وصف هذا التسامح لمستشرق نصراني هو "ت، و، إرنولد" [T. W. Arnold] بعنوان "الدعوة إلى الإسلام" [The Preaching of Islam] كان مما جاء فيه [ص٥١]: (ومن هذه الأمثلة التي قدمناها آنفاً عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة، واستمر في الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة، وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح)[٨٩].

إن الله قد أعد هذه الأمة إعداداً خاصا لتحكم رقعة واسعة من الأرض بمن فيها من الأقليات غير المسلمة، التي علم الله أنها ستكون ضمن رعايا الدولة الإسلامية الحاكمة في الأرض.

فكل أمة سابقة أرسل بعدها رسول، آمنت بالرسول الذي أرسل إليها وكفرت بمن بعده، وصار في قلبها غلٌّ نحو الذين آمنوا بالرسول الجديد ولو كانوا من قومها الأقربين، واضطهدتهم اضطهادا شديدا بسبب الخلاف في العقيدة.

أما هذه الأمة فقد قدر الله لها أن يكون رسولها هو الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم، الذي لا نبي بعده ولا رسول، فلم يجعل في قلبها غِلاًّ لأحد، لا لمن قبلها، لأن رسولها هو سيد البشر جميعاً وسيد المرسلين، ولا لأحد يأتي بعدها، لأنه لن تأتي بعدها أمة جديدة، ثم جعل الإيمان بالرسل السابقين جزءا من عقيدتها، فلم تضطهد أتباعهم، ولم تظلمهم بسبب الخلاف في العقيدة: {الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

[٨٩] ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وزميله، طبع بالقاهرة.

ووصى الله الأمة المسلمة بالعدل مع أهل الكتاب، والقسط لهم، وأقام الروابط الطيبة بينها وبينهم: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ...}، {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ}.

وجعل الأمة المسلمة مسئولة عن حماية كنائسهم ومعابدهم، وإتاحة الفرصة لهم لأداء عبادتهم فيها، وتركت لهم أمورهم الشخصية تحكمها شريعتهم. لذلك عاشوا في ظل الدولة الإسلامية أهنأ عيش تحلم به أقلية في الأرض.

وقديماً قال أهل الشام لأبي عبيدة بن الجراح: (أنتم – ولستم على ديننا – أرأف بنا من أهل ديننا[٩٠]).

وحين كانت أوربا تضطهد اليهود في العصور الوسطى وتطاردهم على أساس اعتقادهم أنهم صلبوا المسيح عليه السلام، لم يجدوا صدراً رحباً يؤويهم إلا الدولة الإسلامية في الأندلس، فلما أخرج المسلمون من الأندلس بعد المذابح البشعة التي ارتكبتها محاكم التفتيش في حقهم هاجر اليهود معهم إلى المغرب، لينعموا بالعيش الهانئ في ظل الدولة الإسلامية هناك.

وعاشت الأقليات المختلفة في ظل الدولة العثمانية أربعة قرون تنعم بالطمأنينة والحماية، وتمارس نشاطها كله بلا تحريج عليها، حتى جاءت روسيا وفرنسا وبريطانيا تثير الأقليات ضد الدولة لتفجرها من داخلها.

قارن هذه الحياة الهادئة المطمئنة للأقليات في ظل الدولة الإسلامية بأحوال الأغلبية المسلمة المقهورة في الحبشة فضلاً عن الأقلية المسلمة في الهند، والأقلية المسلمة في الفلبين، وغيرها من الأقليات المسلمة في أرجاء الأرض.

أفبعد ذلك يقول قائل إن من حق الأقليات غير المسلمة أن تمنع الأكثرية المسلمة من ممارسة دينها كما أمرها الله؟!

---

[٩٠] انظر "الدعوة إلى الإسلام" – سبقت الإشارة إليه –: ص٥٤.

وأي مصيبة أصابت "المسلمين" فجعلت أفراداً منهم، يحملون أسماء مسلمة، ينادون بعدم تطبيق الشريعة الإسلامية من أجل وجود أقلية غير مسلمة بين ظهرانيهم، فكأنهم يقولون؛ اكفروا بدينكم أيها المسملون، لكي تمارس الأقليات غير المسلمة دينها على التمام!

المبحث السادس
شبهة عدم إمكان تطبيق الشريعة
بسبب "الدول العظمى" وضغطها على العالم الإسلامي

تبدو هذه الشبهة من بين الشبهات جميعاً أكثرها "واقعية"... فالدول التي نحيت فيها الشريعة الإسلامية نتيجة التدخل العسكري لأعداء الإسلام، ما تزال عاجزة عن السيطرة الحقيقية على شئونها وإن كانت قد استقلت ظاهرياً، بمعنى خروج الجيوش الغازية من أراضيها، فما تزال واقعة تحت السيطرة السياسية أو الاقتصادية لهذه الدولة أو تلك من القوى العالمية التي تسمى "الدول العظمى"، وما تزال في حالة من الضعف السياسي والاقتصادي والحربي والعلمي والمادي، تجعل خضوعها لسيطرة تلك القوى أمراً واقعاً، شئناه أم أبيناه.

ولهذه القضية – في دراستنا هذه – وجهان:

الوجه الأول؛ هو الإجابة على هذا السؤال: لماذا صار العالم الإسلامي إلى هذا الوضع المهين إزاء القوى العالمية المتسلطة؟

والوجه الثاني؛ هو الإجابة على هذا السؤال: هل حقاً لا نملك أن نصنع شيئاً إزاء ذلك التسلط العالمي على الأمة الإسلامية؟

فإذا تبينّا هذين الوجهين، فسيتبين لنا مدى الواقعية الحقيقية لهذه الشبهة من بين الشبهات.

* * *

فأما السؤال الأول فما بنا هنا أن نتكلم عنه بإسهاب[٩١]، وإنما نختصر الإجابة عنه أشد الاختصار، فنقول إن السبب في هذا الوضع المهين هو تهاوننا التدريجي المتزايد في التمسك بحقيقة هذا الدين، وانحسار مفاهيمه كلها عن حقيقتها التي نزلت بها من عند الله، واتخاذها صورة غريبة على هذا الدين، بدءاً من مفهوم "لا إله إلا الله"، إلى مفهوم العبادة، إلى مفهوم القضاء والقدر، إلى مفهوم الدنيا والآخرة، إلى مفهوم الحضارة وعمارة الأرض، إلى مفهوم الجهاد، إلى مفهوم التربية، إلى مفهوم الأخلاق، إلى مفهوم العلم... إلى مفهوم كل شيء في هذا الدين[٩٢]!

"لا إله إلا الله"؛ تحولت إلى كلمة تنطق باللسان، وقد كانت منهج حياة كامل!

العبادة؛ انحصرت في الشعائر التعبدية وقد كانت شاملة لكل عمل وكل فكر وكل شعور في حياة المؤمن!

عقيدة القضاء والقدر؛ كانت قوة دافعة رافعة، فصارت قوة مثبطة مخذلة!

الدنيا والآخرة؛ كانتا في حس المسلم حسية واحدة وطريقاً واحداً أوله في الدنيا وآخره في الآخرة، فأصبحت معسكرين متضادين، إما أن تعمل للدنيا وإما أن تعمل للآخرة... ولا يجتمعان!

الحضارة؛ كانت مفهوماً شاملاً يشمل العقيدة والقيم والأخلاق والنظم والتنظيمات والأفكار والنشاط المعمر للأرض، فصارت مفوهاً سطحياً مادياً خلواً من القيم الحقيقية التي تتميز بها حياة الإنسان المسلم!

الجهاد؛ كان حركة بانية لإزالة الجاهلية من الأرض، وإحلال المنهج الرباني محلها، والتمكين لدين الله في الأرض، فانحصر في الجهاد "الدفاعي" ثم انحسر على يد الصوفية إلى جهاد النفس وترك الفساد يعج في الأرض!

التربية؛ كانت تربية شاملة هدفها تكوين المسلم المؤمن العالم بدينه، المتخلق بأخلاقياته، المجاهد في سبيله، فصارت تربية تقليدية تخرّج شخصيات سلبية وإمعات لا دور لها في شيء إيجابي، ولا قدرة لهم على البناء، ولا على مواجهة مستجدات الحياة.

[٩١] انظر إن شئت: "واقعنا المعاصر"، فصل؛ "آثار الانحراف".
[٩٢] انظر إن شئت: "مفاهيم ينبغي أن تصحح".

الأخلاق؛ كانت معنى شاملاً يشمل أخلاق السياسة وأخلاق الاقتصاد وأخلاق الاجتماع وأخلاق الفكر وأخلاق الأدب وأخلاق الأسرة وأخلاق الجنس... فانحصرت في بعض ألوان السلوك دون بعض، وتحولت إلى تقاليد خاوية من الروح!

العلم؛ كان شاملاً للعلوم الدينية والعلوم الدنيوية من طب وفلك ورياضيات وفيزياء وكيمياء... إلخ، فانحصر في العلوم الدينية، وانحصر في حدود مذهبية ضيقة، وعصبية مذهبية سقيمة، وتقليد فكري لا يبدع!

ولما حدث ذلك كله، نتج عنه التخلف العلمي والمادي، والحضاري، والسياسي، والحربي، والاقتصادي، والأخلاقي، الذي اجتذب الأعداء من كل صوب ليحاولوا القضاء على الإسلام!

(يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها)، قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: (إنكم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة من صدور أعدائكم، وليقذفن في قلوبكم الوَهْن)، قالوا: وما الوهْن يا رسول الله؟ قال: (حب الدنيا وكراهية الموت).

فكون المسلمين اليوم مستضعفين... حقيقةٌ، ولكنها حقيقة يقع وزرها على المسلمين أنفسهم، ولا تصلح عذراً لمجموع الأمة يوم القيامة، اليوم الذي قال الله بشأنه: {بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ}.

وقد يقول المسلمون – وهم صادقون –؛ إن كيد الأعداء شديد.

ولكن ينبغي أن نذكر أن هذا الكيد ليس ابن اليوم، وليس ابن الأمس القريب... إن عمره على وجه التحديد أربعة عشر قرناً ونيفاً، أي منذ نزل هذا الدين... ولنعد إلى كتاب الله نجد وصفاً دقيقاً لهذا الكيد من كل الأطراف الحاقدة على "لا إله إلا الله"، والأمة التي اقامت "لا إله إلا الله" واقعاً معاشاً في الأرض، أولئك هم اليهود والنصارى والمشركون والمنافقون. ما تغير موقفهم منذ أربعة عشر قرناً، وما تغيرت الأسباب التي دعتهم إلى موقفهم: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}، {وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا}، {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ}.

كلا! ليس الكيد ابن اليوم، ولا ابن الأمس القريب... فهو قديم قديم، وإن كانت بعض الوسائل قد تغيرت، فإن كل جيل من البشر يستخدم في صراعاته الأدوات المتاحة له

في جيله... وإنما الذي تغير حقا هو موقف الأمة الإسلامية من هذا الكيد، وليس الكيد في ذاته ولا وسائل الكيد.

إن الله ينبه الأمة في كتابه المنزل إلى أعدائها، وإلى مواقفهم، ووسائلهم، وتدبيراتهم الظاهرة والخفية، ثم يقول لهم: {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً}.

هذه إذن هي القضية...

إنهم لن يكفوا عن الكيد أبداً ما دامت الأمة المسلمة قائمة، وما دامت هناك فرصة للنيل منها... ولكن هناك أداة ربانية ترد كيدهم في نحورهم، فلا يضر الأمة بشيء: {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}.

فما تلك الأداة الربانية التي ترد الكيد فيتراجع خاسئاً وهو حسير؟ أهي تعويذة تتلى أو تميمة تعلق على الصدر؟ كلا! إنها عمل إيجابي ضخم تلخصه هاتان الكلمتان: تصبروا... وتتقوا.

وحين انحرف فهم المسلمين لكل مفاهيم الإسلام، انحرف في حسهم كذلك مفهوم الصبر والتقوى، فتحولا إلى سلبية ليس فيها غناء.

ولنعد إلى سياق الآيات لنفهم المقصود بهاتين الكلمتين العظيمتين:

إن الأعداء يريدون أن يُجْلُوا المسلمين عن دينهم، ويردوهم من بعد إيمانهم كفاراً... فما الصبر المطلوب إذاً؟

إنه الصبر على تكاليف هذا الدين، والصبر في مواجهة الأعداء، وثبات المسلمين على دينهم مهما فعل الأعداء لإجلائهم عنه...

وما التقوى؟ إنها تقوى الله، إي اتقاء غضب الله وسخطه، فبأي شيء يتقى غضب الله وسخطه؟ هل من سبيل إلى ذلك إلا طاعته فيما أمر به والانتهاء عما نهى عنه؟!

هذا هو الصبر وهذه هي التقوى اللذان يصدان الكيد فلا يضر، وهما كما نرى قوتان إيجابيتان هائلتان، متينتان كالحصن، لا يجد الأعداء عندهما ثغرة للنفاذ إلى الأمة وإلحاق الضرر بها، والضرر المقصود هنا ليس هو الأذى الذي يصيب الأفراد، إنما هو الضرر الذي يلحق بالدين، الذي هو عماد هذه الأمة وكيانها الحقيقي، إما الأذى فهو يقع، ولكنه لا يؤثر في كيان الأمة، ولا يحولها عن طريقها: {لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ}.

وكذلك كان حال الأمة مع أعدائها يوم كانت قائمة بالشرط... كانت ممكّنة في الأرض، وكانت هي الغالبة وهي المستعلية، وكان كيد الأعداء مردوداً إلى نحورهم كما ارتد أيام الحروب الصليبية الأولى[٩٣]، وأيام حروب التتار، وغيرهم وغيرهم من الأعداء.

فإن قلنا اليوم إن الكيد شديد، فهذه حقيقة، ولكنها حقيقة لا تعفي الأمة من مسئوليتها أمام الله، يوم يكون الإنسان على نفسه بصيرة، ولو ألقى معاذيره.

* * *

تحدثنا عن الوجه الأول من القضية، ومعرفته ضرورية لنا، لنتعرف على طريق الخلاص، فإن الطبيب إذا لم يتعرف على حقيقة الداء، والأسباب التي أدت إليه، فلن يصف الدواء الحقيقي الذي يؤدي – بإذن الله – إلى الشفاء.

أما الوجه الثاني؛ فهو الرد على هذا السؤال: أحقاً لا نستطيع شيئاً إزاء كيد الأعداء؟!

إن أحداً من الجادين لا يقول ذلك، وإن اختلفت درجات الجد وزوايا الرؤية ومناهج العاملين.

إننا في الحقيقة نملك الكثير... إذا عزمنا العزمة الصادقة، واتجهنا الاتجاه الصحيح، إي إذا عزمنا عزمة صادقة أن نعود إلى حقيقة ديننا ونتحمل التكاليف.

إنه لا بد من جهاد... وكل طريق غيره لا يؤدي إلى شيء... والذين يتهيبون الطريق يقدمون بدائل يحسبونها تؤدي إلى الخلاص وتعفيهم في ذات الوقت من الجهاد، وعند التحليل الواقعي تنكشف هذه البدائل عن أوهام...

يقولون: نبني اقتصادياتنا على أسس متينة، فكل شيء في عالم اليوم مبني على الاقتصاد.

ونقول: مرحباً ببناء اقتصادياتنا على أسس متينة، فذلك أمر لا غنى عنه في أي حال من الأحوال، ولكن الوهم يقع عند الظن بأن هذا الطريق سيوصلنا – وحده – ويعفينا من الجهاد.

[٩٣] تميزاً لها عن الحروب الصليبية الثانية، التي تدور منذ قرنين أو ثلاثة وما تزال دائرة.

إن الذين يتحكمون فينا ليمنعونا من تطبيق شريعتنا، هم أنفسهم الذين يتحكمون فينا ليبقى اقتصادنا عالة عليهم، ولا يستقل عنهم، ولا يستغنى عن تدخلهم، ولا يصل إلى حد الاكتفاء.

وليست هذه دعوة إلى اليأس من الإصلاح... كلا! ولكنها فقط تبصرة بأن الأمر لا يستغني عن الجهاد.

إن الأرض التي انتشر فيها الإسلام – بقدر من الله – هي بفضل الله أغنى بقعة في الأرض، بثرواتها البشرية والمعدنية والمائية، وكل أنواع الطاقات، ولكن أهلها اليوم هم أفقر سكان الأرض، وأشدهم جوعاً ومرضاً وتخلفاً... ولو كانت هذه الثروات والطاقات ملكاً حقيقياً لأهلها لكانوا أغنى سكان الأرض... فمن الذي يمنعهم من امتلاكها والتصرف الحر فيها؟ هم ذات الأعداء الذين يمنعونهم من تطبيق شريعتهم!

إن في السودان وحده مساحة من الأرض يقول الخبراء إنها لو زرعت قمحاً لكفت افريقيا كلها، ودفعت عنها غائلة الجوع بفضل من الله، وقصتها أنها من أخصب بقاع الأرض ولكنها مستنقعات لا تصلح في صورتها الراهنة لشيء، والسبب في ذلك أنه يحدث في النيل في وقت واحد فيضانان، أحدهما تسببه الأمطار المحلية في السودان، التي تملأ النهر بالماء، ثم يأتي الفيضان الآخر من الحبشة محملاً بالغرين الذي يخصّب الأرض، فيجد النهر ممتلئاً فيفيض على الجنبين ويجعل الأرض مستنقعات، والمشروع المطلوب هو حفر قناة وإنشاء خزان تختزن فيه المياه القادمة من الحبشة حتى يتصرف الماء المجتمع من الأمطار المحلية، فيستفاد من هذه المياه وتلك، ويستفاد من الأرض بعد تجفيفها وإعدادها للزراعة، فيزرع فيها من القمح ما يكفي افريقيا كلها.

فما الذي يمنع من تنفيذ ذلك المشروع الحيوي – وهو مدروس من الوجهة الفنية منذ ما يزيد كثيراً على نصف قرن –؟ تمنع من تنفيذه عوامل كثيرة، ليس أقلها تحكم القوى العالمية في اقتصادياتنا بحيث لا نجد في أي وقت فائضاً من المال نوجهه لمثل هذا المشروع النافع، ولا فسحة من الوقت ننتظر فيها ثماره – ولا بد أن يستغرق بضع سنوات من الإنفاق قبل أن يعطي الثمار – لأننا نلهث دائماً وراء تلك القوى نستمطر رحمتها لكي تسعفنا بلقمة الخبز، وتجدول لنا الديون التي نقترضها منهم للوفاء بلقمة الخبز للجماهير الجائعة، ثم تذهب مذاهب لا يعلمها إلا الله، وتثقل الجماهير بدفع فوائد القروض!

وفي آسيا مساحات شاسعة من الأرض القابلة للزراعة، وكميات هائلة من الماء الذي يذهب هدراً في المحيطات، أو يغرق الأرض في فيضانات هادرة تهلك الحرث والنسل... ويحتاج الأمر إلى مشروعات هندسية لتنظيم استخدام الماء، وتخزينه وقت فيضانه وتوجيهه إلى

الزراعة وإنتاج الكهرباء... فما الذي يمنع من تنفيذ تلك المشروعات؟ ذات العوامل... ذات القوى المتسلطة التي لا تريد للمسلمين أن يقوموا من وهدتهم.

فكيف تواجه تلك القوى بغير جهاد؟!

ويقولون: نقوي أنفسنا بالسلاح لكي نواجه الأعداء!

ونقول: مرحباً بتقوية أنفسنا بالسلاح... فذلك أمر لا غنى عنه في أي حال من الأحوال.

ولكن الوهم يقع مرة أخرى حين نظن أن هذا الطريق موصل بذاته، بغير جهاد.

فمن أين نأتي بسلاحنا؟

إنه من عند ذات القوى التي تمنعنا من تطبيق شريعتنا، وتمنعنا في الوقت ذاته من تملك القوة الحقيقية التي نحمي بها أنفسنا فضلاً عن أن تكون عندنا قوة ترهب الأعداء، كما أمر رب العالمين: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ}.

وحين نحاول أن نصنّع شيئاً من وسائل القوة تهددنا القوى المتسلطة أو تضربنا.

ولنتذكر جيداً أن "القوى العظمى" مكنت إسرائيل من ضرب المفاعل النووي في إحدى الدول العربية بحجة أنه يهدد أمنها، بينما تملك إسرائيل ثلاث مفاعلات نووية – بحماية القوى العظمى – تهدد بها أمن العالم العربي بأسره والعالم الإسلامي!

ولنذكر أيضاً أن أمريكا هددت بضرب ليبيا بحجة أنها تسعى في إنشاء مصنع للأسلحة الكيماوية! بينما تملك كل دول الغرب مصانع ومصانع من كل نوع من أنواع السلاح بما في ذلك الأسلحة الكيماوية الممنوعة على ليبيا!

ولا تجد "الدول العظمى" في نفسها خجلاً من مثل هذه التصرفات المكشوفة، لأنها "عظمى"... لأنها تملك القوة!

ومن قبل تذرعت بريطانيا "العظمى" لاحتلال مصر عام ١٨٨٢م، بأن مصر ترمم حصونها الساحلية في أبي قير! فمجرد ترميم الحصون القديمة اعتبرته بريطانيا عملاً عدائياً ضدها! عملاً يستوجب التأديب!

فهل من سبيل لرفع ذلك الجور المحيط بالأمة الإسلامية في جميع الميادين إلا بالجهاد؟!

يقولون: نتعلم.

ونقول: مرحباً بالعلم، فذلك أمر لا غنى عنه في أي حال من الأحوال.

ولكن أبناءنا حين يتعلمون بغير روح الجهاد، فإنما يتعلمون قشوراً من العلم، ولا يصبرون على تكاليف العلم الحقيقي، ويتعلمون لكي يحصلوا على ورقة تؤهلهم للوظيفة المريحة في العمل المريح، ويهربون من العمل الشاق الذي ترتقي به البلاد، ومن شذ منهم فبرز في علمه حقيقة تسعى "القوى العظمى" إلى شرائه، إما بإغرائه بالهجرة إليها، وإما بشراء فكره وقلبه فيكون أداة إفساد في وطنه بدلاً من أن يكون أداة إصلاح...

ويقولون... ويقولون... ويقولون...

كل الوسائل التي يقترحونها تدور في مدى معين، هو المدى الذي رسمته لنا القوى العالمية التي تحارب تطبيق شريعة الله... فهل من سبيل إلا بالجهاد؟!

* * *

يقول الذين يتهيبون الطريق... كيف نجاهد ونحن مستضعفون؟ كيق نجاهد ونحن في قبضتهم أنّى اتجهنا؟

وهؤلاء نقول لهم: انظروا إلى الجهاد الأفغاني... وانظروا إلى الانتفاضة الإسلامية في فلسطين؛ من كان يتصور – أو يصدق – أن أمة شبه عزلاء تضطر أكبر قوة وحشية في التاريخ الحديث أن تسحب جنودها من الميدان؟!

إن الجهاد الأفغاني آية من آيات الله... إنه تصديق عملى لما جاء في كتاب الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}.

لقد كاد انتصار الفئة القليلة المؤمنة على أضعافها من القوى الكافرة يصبح أسطورة في حس "المسلم المعاصر"، أو على الأكثر ذكرى لأيام خلت لا يمكن أن تعود!

وحين يقرأ "المسلم المعاصر" في كتاب الله أمثال هذه الايات: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}، {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}.

حين يقرأ "المسلم المعاصر" أمثال هذه الآيات في كتاب الله؛ لا يحس أنها موجهة إليه هو، ولا موجهة إليه الآن في هذه اللحظة، إنما يقرؤها على أنها كانت موجهة للذين تلقوا القرآن أول مرة ولا علاقة لها بالأجيال الحاضرة! وهي في حسه رواية عن أحداث مضت، وليست سنناً جارية تتحقق كلما تحققت أسبابها!

ولكن الجهاد الأفغاني أعادها إلى وضعها الحقيقي... إنها توجيهات ربانية موجهة للأمة كلها في جميع أجيالها، وسنن جارية تتحقق كلما تحققت أسبابها... {تنصروا الله}، هذا هو المطلوب من الأمة، وحين يقع، يترتب عليه الجزاء الرباني؛ {ينصركم ويثبت اقدامكم}، {وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}.

والمعركة في أفغانستان ما تزال دائرة، وما ندري إلى أي شيء ينتهي ذلك الصراع الجبار، ولكن ما تم منه حتى اللحظة درس للمتهيبين، ودرس للمترددين، ودرس للمتشككين... ودافع في الوقت ذاته لأولي العزم من المجاهدين.

أما الانتفاضة الفلسطينية فهي درس آخر على الطريق:

إنها لا تملك إلا الحجارة... ولكنها تملك أكبر طاقة يؤتاها البشر؛ الإيمان.

وقد فعلت الحجارة في يد الصبية المؤمنين ما لم تفعل أربعون سنة من المناورات والمحادثات والمفاوضات والاجتماعات فيما يسمى "المحافل الدولية" وغيرها من المنتديات.

إنها تحقيق آخر للسنن الربانية الجارية، التي تتحقق كلما تحققت الأسباب.

ودافع لاستنهاض الهمم لمن يملك العزيمة ويبحث عن الطريق...

* * *

لا بد للأمة الإسلامية – لكي تستعيد مقومات وجودها، وفي مقدمتها التحاكم إلى شريعة الله، وتحقيق منهج الله – لابد لها من الجهاد، فإن الأعداء لن يسلموا لها شيء إلا بالجهاد... لا التعليم الحقيقي المثمر، ولا الاقتصاد المستقل، ولا السلاح... ولا شيء على الإطلاق، إنهم سيظلون يحاورون ويداورون، ثم لا يعطون الأمة إلا ما يريدون هم، وما يحقق مصالحهم هم، لا ما يحقق الوجود الحقيقي للأمة التي لا يريدون لها الوجود!

والجهاد وحده هو الذي يحقق للأمة كيانها الذي تتطلع إليه. كيانها السياسي، وكيانها الاقتصادي، وكيانها الحضاري، وكيانها العلمي، وكل كيان.

ولن يتحقق شيء في يوم وليلة، فالمشوار طويل، لأن المدى الذي بعدته هذه الأمة عن طريق الله، والذي ينبغي أن تقطعه من جديد لتعود إليه... مدى كبير، يحتاج إلى زمن غير قصير، وجهد غير قليل.

ولكنه أمر لا بد منه...

ينبغي لنا أن نوطن أنفسنا لجهاد طويل...

ينبغي أن نتعلم بروح الجهاد، ونعمل بروح الجهاد، ونعيش بروح الجهاد، ونحمل في حسنا في كل لحظة أن لنا هدفاً ضخماً نريد تحقيقه، ونعمل على تحقيقه، فبمثل هذه الروح تولد الأمم من جديد، وتأخذ طريقها إلى الصعود.

لا بد من تربية جيل جاد، يحمل بين جنبيه الشعلة المقدسة: شعلة الإيمان، شعلة الجهاد.

وحين يولد هذا الجيل، فسيحقق الله النصر على يديه، تحقيقاً لسننه الجارية، ولوعده الخاص لهذه الأمة: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً}.

وحين يولد هذا الجيل، الذي يعيش بروح الجهاد في كل لحظة، فهو إما أن يجد الطريق مفتوحاً، فيحقق أهدافه بجهاد العمل الشاق المتواصل، وإما أن يجد الطريق مسدوداً فيفتحه بجهاد القتال... ولا ينال في كل حالة إلا إحدى الحسنيين: {قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ}.

وعندئذ يصبح تطبيق الشريعة أمراً واقعاً... وتصبح العقبات هي الأوهام!

تعقيب

الآن وقد ناقشنا الشبهات التي تثار حول تطبيق الشريعة، يتبين لنا أن كثيراً منها ليس ناشئاً من تفكيرنا الذاتي، ولا من تجربتنا الذاتية، إنما هي أفكار أثارها في حياتنا الغزو الفكري، ليباعد بيننا وبين العودة إلى الشريعة الربانية بعد إذ أجلانا عنها الغزو الصليبي، وأن ما يتعلق منها بعدم إمكان التطبيق هو مجرد عقبات مصطنعة جسمت لنا لتصدنا عن المحاولة، بل عن مجرد التفكير...

وكثيراً ما تكبر الأوهام في نفوس الناس حتى تصبح في وهمهم هي الحقيقة، ويصبح الحق هو الخاطر البعيد الذي يحتاج إلى جهد لتثبيته مكان الأوهام.

وليس العجب على أي حال أن يسعى أعداؤنا إلى تشكيكنا في ديننا، فهذا دأبهم منذ نزل هذا الدين، إنما العجب أن يتبعهم في تشكيكهم "مسلمون" يحملون أسماء إسلامية، ويقولون بأفواههم "لا إله إلا الله".

وأياً تكن الأسباب التي أدت بهؤلاء أن يقفوا ذلك الموقف، فإن ذلك يفتح أعيننا على التبعة الجسيمة التي تقع على عاتقنا إزاء هذه الأوضاع.

إنه ما كان لهذه الشبهات أن تثار، وما كان للغزو الفكري أن يتوغل في حياة الناس، لو أن الناس كانوا على فهم حقيقي للإسلام، وممارسة حقيقية لمقتضيات الإيمان.

والتبعة الكبرى تقع الآن على الدعاة...

هم الذين ينبغي أن يدركوا حقيقة الأوضاع الراهنة في الأمة، ويقدموا لها العلاج.

ولن تكون الدعوة مجرد دروس ومحاضرات، ولن تكون مجرد وعظ يلقى على أسماع الناس، إن هذا كله مفيد ولازم للدعوة، ولكنه – وحده – لا يصنع شيئاً في حقيقة الأمر.

إنما الدعوة قدوة وتربية، قبل أن تكون وعظاً ودروساً ومحاضرات.

وذلك الذي ينبغي أن يدركه الدعاة جيداً إن أرادوا حقاً تغيير واقع هذه الأمة، وردها إلى الجادة من جديد.

وحين يدرك الدعاة مهمتهم الأصيلة، فسيكون جانب منها ولا شك بيان حقيقة التوحيد، وأنها عبادة الله وحده بلا شريك، وإقامة الحياة كلها بمقتضى المنهج الرباني – بما في ذلك تطبيق شريعة الله – ونبذ كل الآلهة المزعومة التي تقف في طريق التوحيد الخالص، بما في ذلك دعاوى الجاهلية المعاصرة التي تناوئ بها عبادة الله، باسم التطور مرة، وباسم الحضارة مرة، وباسم العلم مرة، وباسم الثورة التكنولوجيا مرة، وباسم الرأي العام العالمي مرات...

وسيكون جانب من مهمتهم ولا شك تلقين الشباب – من خلال القدوة والتربية – أن الإيمان قول وعمل، فليس الإيمان كلمة، وليس وجداناً مستسرا في الضمير، وليس "مفهوماً" فكرياً يلقى، إنما هو الكلمة والوجدان والمفهوم الفكري مترجمة كلها إلى واقع سلوكي مشهود، واقع يغير النفس من داخلها ويغير الحياة الواقعية، فيشكلهما بمقتضى المنهج الرباني، المنزل في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: (كان خلقه القرآن)[٩٤].

وبهذه الحقيقة الهائلة التي عاشها رسول الله صلى الله عليه وسلم وربّى عليها أصحابه رضوان الله عليهم تغيرت الأرض، وبرزت إلى الوجود خير أمة أخرجت للناس.

والبشرية الضالة اليوم – برغم كل ما تملكه من علم ومن حضارة ومن تكنولوجيا – في أشد الحاجة إلى مثل ذلك التغيير مرة أخرى، ليرتد إليها صوابها، وتعود إلى عبادة الله، وتنبذ عبادة الشيطان، وتستخدم ما فتح الله عليها من العلم والحضارة والتكنولوجيا في أداء المهمة الكبرى التي خلقت من أجلها: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}، {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ}.

والدعاة – الذين تقع عليهم هذه التبعة الهائلة – يلزمهم، فيما يلزمهم، أن يكونوا هم القدوة لما يدعون الناس إليه، وأن يمارسوا هذا الدين على نطاقه الأشمل، ليعرضوا للناس حقيقته كاملة، وأن يركزوا على بناء القاعدة الصلبة التي تحمل التبعة وتحسن المسير.

[٩٤] أخرجه مسلم.

وبالله التوفيق